د: فاخر الياسري

خَطَراتٌ فِي اللُّغَةِ القُرآنيَّةِ

53

الموسوعة الثقافية







الموسوعة الثقافية

سلسلة ثقافية شهرية تتناول مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة



دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات الى
المدير العام
ورئيس مجلس الادارة
السيد نوفل ابو رغيف
العنوان:
العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ـ فاكس٤٤٤٨٧٦٠ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar - iraqculture@yahoo.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله مُبْدِع الكون، مُصوّر الإنسان الذي علّمــهُ البيــان، والصلاة على رسولنا المصطفى محمد (صــلى الله عليــه وآلــه وسلّم) . وبعدُ:

القرآن الكريم كلّه يُسْرٌ لا عُسر فيه. قريبٌ من كلّ نفــسٍ، دانٍ من كُلِّ قَلْبٍ وعقل...

لقد صحّت النّية أن التقي بالقرآن دارساً مَسْلكَهُ اللّغويّ بعد أن التقيت به قارئاً ومستمعاً ومتدّبراً، هذه الصحبة الفضــيلة التــي اتصلت بيني وبين القرآن للوقوف على مسلكه البياني في التّعبير كان لها الأثرُ البارز والكبير في قيــام هــذا الإحســاس الرضــيّ المطمئنّ. أجل، لقد مددْتُ يداً قصيرةً إلى قُطوفه البيانية الدّانيــة وثماره الكريمة الطّيبَةَ لعلّي أُصيب من خيره وأَقطف من ثماره!! إنّ الذي أضعهُ بين يدي القارئ العزيز جملة مــن الموضــوعات التي تُعنى بالأُسلوب القرآني الساحر الأخّاذ المنسوج من الكلمات المشحونة والمحَملة بالدلالات والمعاني الكثيرة التي تمثّل الفــوق البلاغي والبياني، ففي كلّ

كلمة من كلمات القرآن قبسْة من نور ونفحة من نفحات القَوة والعزّة. ونتيجة الإلحاح الشريف من زملائنــا الطّيبــين وطلبتنــا الأعزاء عَمدتُ الى جمع هذه الموضوعات اللّغوية القرآنيــة مــن

بين يدي ما نُشر في صحافة العراق خشيةَ من بلَى هذه الصَحف وضياعها وبغيةً للافادة منها مطالعةً ودرساً وبحثاً وجملة هذه الموضوعات أمشاجٍ بعضها يتَصل بالحرف وقصديته التَعبيرية في القرآن، وبعضها يتَصل بالكلمات وانبعاث دلالاتها في السَياق القرآني، وبعضها يتَصل بالتأليف أو التركيب وبعضها يتَصل بمعالجات قرآنية متنوَعة.

وعليه فها انت ذا تجدُ نفسك وأنتَ تطلَع على هذه الموضوعات بين ألوان من القول الذي يسحرك وقد رفع لعينيك منارات من البيان، وعندما نتأمل ملياً بعض الآيات القرآنية التي وقفنا عندها تُشدُ إليها لتطَلع على وجوه الحُسْن فيها وتفَتش عن مواطن الجَمال فيها: في كل حرف بل في كلَ كلمةَ وتركيب ليتحقق من أنَ الصورة القرآنية كائنٌ حيٌ سوَتَهُ يدُ القُدرةَ أتمَ صورةٍ وأكملها.

نسأل الله أنْ يجعلَ عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُنزلنا به منازل الرَضا والقبول..

((والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَواب))

الدكتور فاخر الياسري

قصدية الحرف في التّعبير القرآني

النظر في اللغة القرآنية أمر لاينتهي امده ولا يقف عند حد بل يبقى متواصلاً على مر الأزمان والمكان.. لذا إنّ دارس القــرآن يحار في أمر تصرفاته وطرق تعبيره الأخــاذة وتلــون اســاليبه وتنوع حروفه التي تشعّ دلالـــة عــن مقاصــد. والمعــروف أنّ الحروف من أهم الوسائل التعبيرية الدقيقة التي تحتاج الى دقة في الاستعمال وذلك لما تؤدي من معانٍ وإيحاءات عبر السياق الــذي تساق فيه...والحرف في استعمال القرآن له خصوصية تعبيريـــة عند استعماله فهو يوحي بأشياء ربما تختلط على غيــر الخبيــر بأساليب العربية وفنونها القولية المأثورة... وعليه هذا سأعرض، لبعض الحروف التي سيقت في تعبيــر القــرآن للتعــرّف علــى مضامينها وأسرارها الدلالية. ومن ذلك ما جاء في قولــه تعــالى، ((**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيه**))

سورة فصلت /٢٦.

انّ تعبير الآية لايساوي في القصدية والدلالة لو قيل في غيــر القرآن: ((**لاتَسْمَعُوا هَذَا القُرْآنِ**))، لأنّ في حــرف (الــلام) تنبيــه وإشعار بأنّ القصد: لاتنصتوا لهذا القرآن ولا تصغوا إليه وبتعبير آخر أجلى أنّ السماع المجرد الذي ليس فيه تركيز وانتباه لم يكن

موضع النهي عنه لأنّة يتعرض له كل واحد وانّما الذي ينهى عنه الذين كفروا السماع المقترن بالانتباه والاصغاء والانصات فهذا لعمري بيان سر استعمال الحرف (اللام) في تعبير هذه الآية الكريمة. ونقف متأملين قوله تعالى: ((**الّذينَ يُنفِقُونَ أموَالَهُمْ بالّليلِ والنّهارِ سِرّاً وَعلانِيَةً فَلَهُمْ أجرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ**..)) سورة البقرة/٢٧٤.

وكذلك قوله تعالى: ((**وَهُوَ الّذِي يَتَوَفّاكُمْ بالّليلِ وَيعلَمُ مَا جَرَحتُمْ بالنّهارِ**...)) سورة الأنعام/ ٦٠، نجد انَ هاتين الآيتين الكريمتين قد استعمل فيهما الحرف (الباء) وذلك لأنَ الانفاق مقترن بوقت الليل والنهار وكذلك التوفي بخلاف قوله تعالى: ((... **يُولِجُ الّليلَ فِي النّهارِ وَيُولِجُ النّهارَ فِي الّليلِ**...)) سورة الحج/٦١ إذا جيء بحرف الجرّ (في) في تعبير هذه الآية لمطلب التضمن والدخول والاحتواء وذلك لجعل النهار ظرفا لليل، والليل ظرفا للنهار كأنّه يحتويه ويتضمنه أي :يدخل فيه فلما كان كذلك جيء بالحرف (في) بخلاف ما تقدّم فانَ التوفي لايدخل في الليل وكذلك الانفاق ولكن يقترن بهذا الوقت فاستعمل حرف (الباء) لإرادة المصاحبة والاقتران واستعمل الحرف (في) لإرادة الاحتواء والتضمن. ونقف عند قوله تعالى: ((**وَالّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبلِكَ وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبّهِمْ**...)) سورة البقرة /٤-٥ ،فالملحوظ

في القول القرآني انّه استعمل حرف الجر (على) أي: (على هدى ربهم..) ومطلب هذا الحرف هو الاستعلاء، قد ورد في سياق تعبير هذا القول الشريف لبيان تمكن الذين آمنوا من الهُدى واستقرارهم عليه إذ شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء بمعنى: ركَبهُ ونظيرهُ (فلان على الحقّ). وكذلك ما جاء في قوله تعالى ((**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ**)) سورة التوبة /٦٠. الاصناف التي ذُكرتْ في هذه الآية الكريمة أصناف ثمانية. جعل الله تعالى الصدقات مصروفة فيهم لكونهم المستحقين لها ولأنّهم أهل لها لكن تعبير الآية الكريمة خصّ المصارف الأربعة الأولى بحرف (اللام) لقصدية الملك والأهلية والاستحقاق وعُدلَ عن هذا الحرف أعني (اللام) إلى حرف آخر وهو حرف الوعاء (في) وذلك في الأصناف الأربعة الأخرى وذلك إيذاناً بانّ اقدامهم أرسخ في الاستحقاق للصدقة وأعظم حاجة في الافتقار لأنّ على الوعاء كما ألمعت فنبه على انهَم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء أو الظرف.

ونتأمل قوله تعالى: ((... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلامَ دِيناً**.)) سورة المائدة/٣، ففي الآية الكريمة نتأمل

حس اقتران الكمال بالدين وحسن اقتران التمام بالنعمة وإضافة النعمة عليه إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم..

والملحوظ في تعبير هذه الآية انّه جيء بحرف (اللام) في سياق الكمال إذ انّ هذا الحرف يؤذن للاختصاص وانّ هذا الكمال شيء خُصّوا به من دون الأمم. وفي سياق اتمام النعمة جيء بالحرف (على) الذي يؤذن بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة. أما في قوله تعالى: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...)) سورة الاسراء/٧٠،فقد أعرض عن إيراد حرف الاستعلاء وهو (على) وجيء بمكانه حرف الوعاء وهو: (في) مع انّ الظاهر هو العلو على الأرض والفلك. إعلاما وإيذاناً بانّ حرف الوعاء أقعد وأمكن هاهنا من حرف الاستعلاء: لأنّ الحرف (على) يُشعر بالاستعلاء ليس غير من غير تمكن واستقرار والحرف (في) يُشعر هاهنا بالتمكن والاستقرار ومن حق ما يكون مستقرا فيه متمكّناً أن يكون مستعلياً له، فلما كان الحرف (في) يؤذن بالمعنيين أو بالدلالتين عدل عليه وأعرض عن الحرف (على) قصدا للمبالغة التي ألمعنا اليها.

ومما تقدم نستخلص : انّ للقرآن الكريم طريقة مخصوصة وفريدة في تعبيره عموما، ومسلكا خاصا في ايراد الحرف الذي يشع بالمقاصد والمعاني التي تستبان من خلال السياق القرآني.

الكلمة في الاستعمال القرآني

لا مراء في أنَّ لغة القرآن موحية فهي من أفصح ما جاء في اللغة العربية بما أودعَ فيها من محاسن إنشاء وجمـــال البراعـــة ومن أسرار وحقائق، وقد تحدث الناس عن آياته في كـــل عصـــر وفي كل جيل، والقرآن مع علّوه ذلك العلو الســـامق البعيـــد هـــو قريب المنال سهل المورد لمن أقبل عليـــه بـــأذن واعيـــة وقلـــب سليم... وها أنا أسوق كلامي في هذا المقام علـــى الكلمـــة فـــي الاستعمال القرآني. فلنا أن نقول: إنَّ الكلمة القرآنية خفيفة علـــى السمع سهلة النطق، تدلُّ على المراد أو المقصد بسهولة ويســـر. والقرآن الكريم عندما يستعمل الكلمةَ أو يسوقها في تعبير لابدّ من أنَّهُ يقصد من استعمالها مقصداً ومعنىً معيناً فيهـــا لايُوجـــد فـــي سواها. فـــ (الأعراب) قد زعمت يوماً (الإيمان) وقد حكى القرآن الكريم لسان حالهم الذي يقول: (آمنّا) ولكـــن الله تعـــالى أراد ان يرشدهم الى التعبير الصحيح ويدلهم على الكلمة التي تفصح عمّا في نفوسهم ومشاعرهم، فقال تعالى: ((**قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِـنْ قُولُـوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**..)) سورة الحجرات/١٤.فالدقة في التعبير والاحتراس في استعمال الكلمة مطلب قرآني حرص عليـــه

ونبَّه، حتى لاتضيع المعاني بين الإفهام ويضيع المقصود عندما يسلك طريق الاحتمالات وسنرى من خلال الاستعمال القرآني ما يوضح هذا ويجليه. فالملحوظ أنَّ بعض القبائل تطلق كلمة (آسن) على الماء المتغير من طول المكث، وبعضها يطلق عليه كلمة (منتن) والمدقق المتأمل يُدرك جلياً أنَّ كلمة (آسن) أبلغ في الدلالة من (منتن)؛ لأنَّ النتن قد يكون من طول المكث وقد يكون من وقوع شيء فيه وقد جاء من مجاورة شيء له ولذلك استعمال القرآن كلمة (آسن) كما في قوله تعالى : ((**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ**..)) سورة محمد/ ١٥.والثابت من كلام العرب أنَّ كلمة (زوج) تدلّ على الواحد ومثله معه يقال للاثنين معاً: الزوجان، ويقال لحليلة الرجل: زوج فلان وزوجة فلان يقال لها أيضاً: امرأة فلان والملحوظ في القرآن الكريم أنَّهُ يطلق كلمة (زَوج) عندما يكون هناك توافق بين الرجل وحليلته، تأمل هذا في قوله تعالى في سورة البقرة/ ١٠٢، في السحرة ((**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**)). فحيثما استعملت كلمة (زوج) دلَّت على الموافقة والمشاكلة في الدين والطبع ونحو ذلك: لأَن الأَصل اللغوي لمعنى الزوج هو: (المكمل للفرد) ولايكون مكملاً متمماً إلاّ إذا كان موافقاً. ويطلق القرآن لفظ

ـمرأة) على (ألحليلة) إذا لم يكن هناك توافــق بــين الــزوجين ـ خصّ هذا التوافق وأعلاه التوافق في الدين وهذا ما يتجلى فــي لاستعمال القرآني فلما كانت امراة فرعون مؤمنة وهو كافر قــال ـعـالى: ((**وَضربَ اللهُ مثلاً للّذِينَ آمنُوا امرّاتَ فِرعَـون**)) سورة التحــريم ١١. ولمّا كانت امرأة نوح وامرأة لوط كــافرتين قــال تعــالى: **ضـربَ اللهُ مَـثلاً للّـذِينَ كَفـرُوا امـراتَ نـوحٍ وَامـراتَ لـوط...**))ســورة ـتحريم/١٠. ودقّة الدلالة على المعنى لاتتأتّى من وضع الكلمــة فحسب بل يأتي من أشياء أذكر منها:-

١-(بنية الكلمة) نأخذ مثلاً كلمة (شهيد) الوارد في قوله تعــالى: ((واسْتَشْهدُوا شهيدَيْن مـنْ رِجـالكُمْ)) ســورة البقــرة /٢٨٢. فـ(شاهد): هو الذي يشاهد حدوث الشــيء وإن كــان لايعـرف تفاصيل هذا الحدوث ولا أسبابه، وأمّا (الشهيد): فهو الذي يشاهد حدوث الشيء ويعرف حقيقته وأسبابه فإذا ما شــاهدت محمــداً يعطي علياً مالاً ولكنك لم تعرف حقيقة هذا العطاء هل دفعــه لــه وفاءً لدينهِ أو أمانةً أو قرضاً..؟ ولم تعرف أنت عدد هذا المــال.. فأنت في هذه الحالة (شاهد) وشهادة الشاهد مردودة ولا يقبــل إلاّ شهادة الشهيد فهي الشّهادة الحقّة.

٢- (جرس الكلمة): المعلوم أنَّ جرس الكلمة يكون له ايحاء بمعنى معيَّن يمكن أنَ تدركه وتشعر بالفرق بينه وبين غيره ولكنك لاتستطيع التعبير عنه، خُذ على سبيل التمثيل ((صوت النار)) فبعض العرب يطلق عليه كلمة (جَلبَة) وبعضهم كان يطلق عليه كلمة (حَسيس) ولكن الإنسان يشعر أنَّ الموسيقى المنبثقة من تكرار حرف (السين) وهو من حروف الصفير تشبه إلى حدّ كبير صفير النار ولذلك استعمل القرآن الكريم كلمة (حَسِيس) في الدلالة على صوت النار فقال تعالى ((**لايسَمعُونَ حسيسها**....)) سورة الأنبياء/١٠٢. وهكذا كان القرآن، من كلمات العربية ما هو أبلغ في الدلالة على إصابة المعنى وعليه فقد اتّسمت كلمات القرآن بالبلاغة والدقَّة المَتناهية في الدلالة على المعنى المراد والمقصد المطلوب وهذا لعمري الحجر الأساس-فيما أعتقد- في الإعجاز اللّغوي في القرآن أجل لقد كان لكلمات القرآن سلطان قاهر على النفوس ومكان مكين من القلوب!!!

النّعمة والنّعيم في الاستعمال القرآني

النعمة: هي الحالة الحسنة التي يكون عليها الإنسان وهي التنعم والنعمة للجنس فهي تقال للقليل والكثير... والنعمة والنعيم: لفظتان من أصل لغوي واحد فهما تلتقيان في المفهوم الدلالي العام لأصل المادة المشتركة والمتون اللغوية في الغالب لاتجد فرقاً بين هاتين اللفظتين... ويمكن تسريح النظر في النص القرآني لنتأمل استعماله وتصرفه في هاتين اللفظتين حيث نلحظ أن الاستعمال القرآني يفَرق بينهما تفريقاً واضحاً وبيناً إذ يعطي لكل لفظة منهما خصوصيتها وميزتها في التعبير...

((فالنعمة)): عطاء رباني من الله تعالى وليس من غيره وعليه فكل نعمة في استعمال القرآن هي لنعم الدنيا من الله الكريم على عباده على الرغم من اختلاف أصنافها وأنواعها حيث يطرد ذلك ولا يختلف استعمالها سواء أكان مفرداً أم جمعاً.. ثم إنّ لفظة (نعمة) قد وردت في استعمال القرآن غالباً مقترنة بلفظ الجلالة ((الله)) أو ما يدلّ عليه بوساطة استعمال بعض الكلمات مثل (ربكم) أو (ربّي) أو (نعمتي) وهذا ملحوظ في الآيات القرآنية التي أورد بعضاً منها: جاء في قوله تعالى: ((**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ**

عَلَيْكُمْ)) سورة البقرة/٢٣١ وينظر: ســورة آل عمــران /١٠٣، ١٧١، ١٧٤، وســورة المائــدة/ ٧، ١١، ٢٠وســورة ابــراهيم/ ٦، ٢٨، ٣٤-وسورة النحل/ ١٨، ٧١، ١١٤وسورة الاحــزاب/ ٩، وسورة فاطر/٣....

وعليه وردت النعمة في هذه الآيات الكريمة التي أشرنا إليهــا مرتبطة بلفظ الجلالة... أو ما يدلّ عليه كما في قوله تعالى ((**ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ**..)) سورة الزخرف /١٣ وقوله تعــالى: ((**يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)) سورة البقرة/٤٠ وتنظــر أيضاً الآيات: ٤٧، ١٢٢، ١٥٠، من الســورة نفســها وســورة المائدة/ ٣ ،١١٠... وقولــه تعــالى: ((**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**))

سورة الصافات / ٥٧.

أمّا (النعيم) فهو أجر الله تعالى لعباده على طــاعتهم وعملهــم وشكرهم وإيمانهم.. ومن هنايتأسس عندنا أنّ (النعيم) جاء فــي الاستعمال القرآني بدلالةٍ إسلاميةٍ مخصوصةٍ وهــي ترمــز إلــى عطاء الآخرة وخلوده.. ولي أن أورد بعض الآيات القرآنية التــي وردت فيها لفظة (النعيم) التي تشير الى نعيم الآخرة الأبدي وقــد استعملها القرآن مضافة إلى (الجنات أو الجنّة) في نحو ما جــاء

في قوله تعالى :((**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)) سورة يونس/٩... وقوله تعالى: ((**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ**))سورة الواقعة/ ٨٨-٨٩ وكذلك ما جاء في قوله تعالى : ((**وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ**)) سورة الشعراء /٨٥، وقد استعمل القرآن الكريم (النعيم) على أنّه ما يُقدّم في الجنّة جاء في قولة تعالى: ((يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)) سورة التوبة /٢١...

ونلحظ في موقع اخر انّ القرآن الكريم قابل بين (النعيم والجحيم) كما في قوله تعالى: ((**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**))سورة الأنفطار /١٣-١٤... ولاريب في أنَّ الذي يقابل (الجحيم)هو الجنّة و(النعيم) صفة من صفات الجنة... وبذا يدلنا الاستعمال القرآني على انّ (النعيم) هو ما أعدّهُ الله سبحانه للمتقين المخلصين في الجنّة.

الإنس والإنسان في الاستعمال القرآني

علينا أنْ نفهم النص القرآني فهماً دقيقاً وخالصاً مستشفاً من روح العربية ومزاجها، وأنْ نحتكم إليه عندما يشتجر الخلاف وتختلف الرؤى اقول: نحتكم الى كتاب العربية الأكبر على هدي التتبع الدقيق لمعجم الفاظه والتحديق الطويل لاسلوبه الرفيع الرائع والتأمل إلى إيحاء تعبيره، ذلك النمط الفريد من بيانه المعجز.

وحينما يستعمل القرآن الكريم الألفاظ إنّما يستعملها ملاحظاً فيها المعنى الدقيق الذي يميزّ هذه اللّفظة ويخصها دون أنْ يخص لفظة آخرى تبدو مشابه لها في نظر الناظر دون أي فرق ...اذن فلابُدّ من التفرقة بين الألفاظ في التعبير القرآني حيث لايعلم فقه هذه المعاني واسرارها إلاّ من رُزِقَ حُسن الفهم لكتاب الله العزيز وفقهاً في توجيه معاني الفاظه والغوص وراء دلالات كلماته. فعلى سبيل التمثيل لفظتا ((الإنس والإنسان)) تشتركان في الملحظ الدلالي العام إذ هما يدلان على الإنسية أو المؤانسة وهي نقيض التوحش ولكنهما لايترادفان وان بدتا لنظر الناظر بانّهما

مترادفتان... والملحوظ من خلال التعبير القرآني انّ كلا من هاتين اللفظتين يتميّز بملحظ دلالي خاص يميزهُ عن الآخر.

فلفظة (الإنس) تأتي في تعبير القرآن مع لفظة (الجنّ) على وجه التقابل. والذي يتبين للنظر أنّ ملحظ الإنسية يعني: خلاف التوحش والنفور وهو نقيضهُ. و(الإنسي) منسوب إلى الإنس ويقال ذلك لمن كَثُرَ أُنسهُ ولكل ما يُؤنس به.. ومن هنا يتجلى لنا أيضاً المفهوم الصريح والواضح من مقابلة لفظة (الإنس) بـ (الجنّ) التي تدلُ في الاصل على التستر والخفاء وهو من مظاهر التفرد والانعزال والتوحش... إذن وبهذه الإنسية يتميزَ جنسنا عن أجناس خفية غير مألوفة لنا ولا تخضع لنواميس حياتنا كما يذهب إلى هذا بعض الدارسين المحدثين القرآنيين. أما (الإنسان) كما يُستقرى من خلال الآيات القرآنية فليس هو مجرد إنس وانّما إنسانية على وجه العمل والتحمل.

إنسانية فيها ارتقاء الى أهلية التكليف وحمل الأمانة... إنسانية فيها تعرض لملابسات الخير والشر والابتلاء... وأمور أخرى تُلقى على عاتق هذا الإنسان. وعليه فقد جاء لفظ الإنسان في استعمال القرآن في خمسة وستين موضعاً إذ نتدبّر هذا اللفظ من خلال سياق الآيات القرآنية التي تهدي إلى معرفة دلالة الإنسان أو

الدلالة المميزة لهذه الإنسانية. فلفظة الإنسان في سياق الآية الكريمة من قوله تعالى: ((**خَلَقَ الأنسَانَ مِنْ صَلصَالٍ كَالفَخّارِ**)) سورة الرحمن/ ١٤. تدلُ على جنسهِ العام من حيث إنهَ إنس... ولكنه مع إنسيته فهو إنسان من حيث تميزه وتخصصه بالعلم والقراءة...قال تعالى: ((**اقْرَأ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ**)) سورة العلق/ ١.
وقوله تعالى: ((**اقْرَأ وَرَبّكَ الأكْرَمَ الّذِي عَلّمَ بِالقَلَمِ عَلّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)) سورة العلق ٣-٥.

وإنسان من حيث هو يختص بالإفصاح وإنسان من كسبه وسعيه وتكليفه.. والبيان كما ورد في قوله تعالى : ((**الرّحْمَنُ عَلّمَ القُرآنَ خَلَقَ الأنسَانَ عَلّمَهُ البَيَانَ**)) سورة الرحمن/ ١-٤. ملحوظ في قوله تعالى: ((**وَأنْ لَيسَ للإنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى وَأنّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَى**)) سورة النجم /٣٩-٤٠. وقوله تعالى ((**إنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إمّا شَاكِراً وَإمّا كَفُوراً**)) سورة الانسان /٣. وكذلك ما جاء في قوله تعالى ((**يُنَبّأ الأنسَانُ يَومَئِذٍ بِمَا قَدّمَ وَأخّرَ بَلِ الأنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**))
سورة القيامة ١٣-١٤.

وإنسان من حيث انّه يتميز بالجدل، جاء في قوله تعالى ((**وَكَانَ الأنسَانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**)) سورة الكهف ٥٤. وإنسان من حيث تحمّله الوصية واحتمالها وهذا ما نستبينه من خلال قوله تعالى :

ووصينا الأنسانَ بوالدَيهِ حُسناً...)) سورة العنكبوت/ ٨ وسورة لقمان ١٤. ويتميز إنساناً من حيث هموم المكابدة واقتحام العقبة كما تصورهُ سورة البلد جاء في قوله تعالى: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الأنسَانَ فِي كَبَدٍ)) سورة البلد/٤. وقوله تعالى ((وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَو إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)) سورة البلد/١٠-١٦.

وبين الإنسان من حيث حملهُ الأمانة وهذا ما سجلّه قوله تعالى : **((إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الأنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً))** سورة الأحزاب /٧٢. وإنّه الإنسان الذي يتعرّض لتجربة الاختبار والامتحان والابتلاء وهذا ورد في قوله تعالى : ((**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأنسانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه**)) سورة ق /١٦. وقوله تعالى : ((**إِنَّا خَلَقْنَا الأنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**)) سورة الانسان /٢. وقوله تعالى :((**فَأَمَّا الأنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**))

سورة الفجر/١٥.

وإنّه إنسان من حيث زَهْوهُ وغرورهُ طغى واستكبر فأضلَّهُ الله وهو بالاستغناء عن خالقه.... وهكذا ما يؤكده قوله تعالى : ((كلاّ إنّ الأنسَانَ لَيَطْغَى* أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)) سورة العلق /٦-٧. وكثيراً ما نلحظ القرآن يذكر هذا الإنسان الضعيف المستكين

بضعفه وهو انه لئلا يطغى وهو يطغى حقاً كما وسمهُ القـرآن...
إذْ يَتَمادَى به غروره وطغيانه إلى كفرانه المبين الذي يقف منـه
الله تعالى موقف الخصيم !!!.

الغيث والمطر في الاستعمال القرآني

كلما دققنا النظر في اسرار الألفاظ عند استعمالها في تعبيـر
القرآن الكريم وأنعمنا الفكر في سـياقها القرآنـيِ وقعنـا علـى
أسرارها الدقيقة واستظهرنا لطائفها العجيبةَ ولحظنا أنَّ بعض هذه
الألفاظ صنعها سياقها القرآني، أو قل أولدها سياق الآيات القرآنية
التي سيقت فيه مدلولاً جديداً مكتسباً وهذا يدعو الـى القـول إنَّ
الألفاظ القرآنية لم تكن متّحدة المعنى وإنمّا لكـل لفظـة معناهـا
ودلالتها المخصوصة وهذا لعمري يمثـل مظهـراً مـن مظـاهر
الإعجاز في التعبير لم يعتد عليه العربي الذي كانت نظرتـه إلـى
الألفاظ نظرة على أنّها متشابهة في الدلالـة وأن اختلفـت مـن
الناحية اللفظية إذ هو لم يُفّرق بينهما في الاستعمال وهذا ملحوظ
اليوم عند أكثر الناس فهم، أيضاً لم ينتبهوا إلى الفروق الدلاليـة
بين استعمال الألفاظ ويمكن أن تأخذ لفظتي (المطر والغيث) مثالاً

لتكشف عن ملحظهما الدلالي في استعمالهما القرآني... بادئ ذي بدء نستثني بعض المعاجم اللغوية في هاتين اللّفظتين فتـذكر أنَّ (المطر) : الماء النازل او المنسكب من السـحاب ويجمـع علـى (أمطار) وتذكر أنَّه يقـال: مطـرت السـماء وأمطـرت: بمعنـىً والاستمطار: الاستسقاء.

وأشارت بعض المعاجم اللغوية إلى أنّه يقال: السماء تمطر في الرحمة وأمطرت لغةً فيها وذكر الراغب في مفرداته مفرقا بقوله: إنَّ (مطر) يقال في الخير، وأنَّ (أمْطرَ) في العـذاب. أمـا لفظـة (الغيث) فتنص المعاجم اللغوية على أنّها (المطر) وسُمِّيَ النبـاتَ غيثاً تسميةً باسم السبب. وعلى العموم فانَّ المعاجم اللغوية فـي الغالب قد فسرت (الغيث) بـ (المطر) ولم يفرّق بينهما دلالياً. أما القرآن الكريم فالملحوظ أنّه قد فرّق بين اللفظتين تفريقـاً دلاليـاً دقيقاً بحيث أعطى لكـل لفظـة مقصـديتها ودلالتهـا المميـزة المخصوصة وهذا لا يحصل ولايكون إلاّ بتعريف أساليب القـرآن وفهمها الدقيق ومـا ينطـوي وراء تعبيراتـه مـن المضـامين والمقاصد. فـ (الغيث) في تعبير القرآن هـو المـاء المنسـكب والهاطل من السماء رحمة للعباد ونعمة فالغيـث سـبب الخيـر ومدعاته فالغيث: نماء وماء، وعطاء، ونعمـاء، والغيـث: زرع

وضرع واخضرار، والغيث: متاع للناس والأنعام. وهـذا المعنـى مُستوحى من بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة (الغيث) من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ((**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**)) سورة لقمان/٣٤ وكذلك ما جاء في قوله تعالى :((**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**)) سورة الشورى/٢٨.

وأما لفظة (المطر) في تعبير القرآن فهي تختلف دلالياً عـن لفظة (الغيث). فالغيث كما ألمعت رحمة ونعمة و (المطر) الـوارد في سياق الآيات الكريمة: نقمة وعذاب على الكافرين إذ يرسـله الله تعالى غضباً وعقاباً للأمم الكافرة الطاغية غير المؤمنة بـالله سبحانه والخارجة عن طاعته والمتمادية في غيّها وعتوها، أجل: يُرسل الله تعالى هذا المطر على الاقوام الضالة المضلة التي تاهت وضاعت... وقعت في شباك كفرها وبغيها وإنّها منعت رُسُل الحقّ ودعاته أنْ يُؤدوا رسالتهم الربانية... حتى أصبحت لفظة (المطر) في استعمال القرآن علماً طاهراً على العذاب والانتقام والعقـاب. وهذا المعنى تسجله الآيات القرآنية التي اذكر بعضها: منهـا مـا جاء في قوله تعالى: ((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**)) سـورة الحجر/ ٧٤. وقوله تعالى: ((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**

سورة الشعراء/ ١٧٣. وينظر سورة النمل /٥٨. وكـذلك مـا جـ ء في قوله تعالى ((**وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**)) سـورة الفرقان/ ٤٠

الارتياب والشكّ في الاستعمال القرآني

لغة القرآن الكريم هي صفوة ما في اللغة العربية من محاسـن وجمال وهي بحق المثال اللغوي الفريد الوحيد الذي أبدعتـه يـد القدرة الإلهية معجزة لبني الإنسان، وفي هـذا المقـام أعـرض للفظتي (الارتياب والشك) في استعمال القـرآن لاتبـين الفـارق الدلالي الدقيق بين هاتين اللفظتين. فـ(الريـب) الظـن والشـك، ورابني الشيء (يريبني) إذا جعلك شاكاً ورابني من فـلان أمـر (يريبني) (ريباً): إذا استيقنت منه الريبة وريب الدهر: صـروفه. والذي يتبدى للنظر انّ معنى الارتياب يمكن أن يكون بمعنى الشك أو تفسير له ولكن التعبير القرآني نعت (الشك) بانّه (مريب) فـي مواضع عدة منها ما جاء في قوله تعالى : ((**إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**)) سورة سبأ/ ٥٤. وهذا مما يُلفت النظر إلى الفارق الدلالي بين اللفظتين إذ انّهما لاتترادفان.

وعليه فقد لفت اهل النظر القرآني إلى هذا التّوصيف فعرضوا (للشكّ والريب) وعلاقة احدهما بالآخر وتعيين الحد بينهما من أجل البحث في دقائق الفروق بين الألفاظ القرآنية... فهناك من يرى أنَّ (الريب) أقبح من الشك ومنهم من يرى: أنَّ الشك مبتدأ الريب وعند آخر: أنّ الريب أخصّ من الشك...ومعلوم أنَّ الشك نقيض اليقين ثبوت العلم، لذا فالشك نقيضه إذ هو حال من التردّد وعدم الاستقرار. والذي يعتقد ونعتقده أنَّ الشك ليس بقوة الريب بل هو أضعف منهُ في إصابة المعنى ولو لم يكن ذلك لما نعت (الشك) بـ (مريب) في ستة مواضع في القرآن الكريم منها ما ذكرناه ومنه قوله تعالى: ((**وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**)) سورة إبراهيم /٩. والذي يُلحظ أيضاً أنَّ استعمال (الرّيب) يكون أوجب وألزم بحسب ما يقتضي المقام أنْ يستعمل فيه، إذ لايمكن بحال ان يحل محله (الشك) وهذا ما نتبينه من خلال قراءة بعض الآيات المباركة منها ما جاء في قوله تعالى: ((**وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا**)) سورة الكهف/٢١.

ففي هذا القول الرباني بيان وتقرير لحقيقة لاتخفى وعلم بأمر محقق الوقوع. ومثل هذا الأسلوب لايستعمل معه لفظة يفهم منها الضعف فاستعملت لفظة (الريب) إذ هي أليق بالمقام من لفظة

(الشك) التي لايمكن أنْ تقوى قوة لفظة (الريب) فاستعمل القــرآن ما كان أليق وأبلغ في اصابة المعنى. ومثل هذا ما جاء في قولــه تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ...)) سورة الحج/٥ وقوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ...)) سورة الشورى/٧ وقوله تعالى: ((قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...)) سورة الجاثية/ ٢٦. فأنت تلحظ معي أنّ قيام الساعة ويوم البعث ويوم الجمع ويوم القيامة هو أمر لا ريب فيه فثباته يقين محق...وبيان وقوع ذلك يتطلب أن يستعمل لفظ يليق بمقام التعبير فاستُعمل (الشك) إذ إنّ اللفظة الثانيــة لاتــؤدي مــا تؤديه الأُولى من القوة والبيان في مقام التعبير كما ألمحت.. إذن فكان القرآن بحق شديد الدقة فيما يختار من الألفــاظ مــن اجــل اصابة دقائق المعاني.

مقصد الشهادة والشهيد في الاستعمال القرآني

الشهادة: ركن من أركان الإسلام فهي القاعدة الأساسية التــي يقوم عليها بناء الدين... والشهادة في المنظور اللغوي مــأخوذة من (شهدت الشيء) :بمعنى اطلعت عليه وعاينته فانــا (شــاهد)

والجمع (أشهاد) و(شُهود) و(شهيد) أيضاً والجمع (شُهَداء) وشَهدتُ العيدَ: أدرَكتُهُ.. وشاهدتهُ (مشاهدةً) مثل: عاينته معاينة وزناً ومعنىً وشهدت المجلس: حضرته فأنا شاهد وشهيد:[١] إذن فاصل الشهادة هي الإخبار والإعلام بما شاهده وعاينه الإنسان ، أما الشاهد والشهيد فهو الحاضر الذي يعلم ما لايعلمه الغائب. والملحوظ في استعمال القرآن الكريم أنَّ الفعل (شهد ومشتقاته) جاء يحمل المعنى اللغوي للفظة وهو: المعاينة والحضور والمشاهدة والإخبار برؤية العين المجرّدة.... جاء في قوله تعالى: ((قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ)) سورة النمل /٣٢. ويتبدى للنظر أنَّ الاستعمال القرآني لم يقف عند حدود المفهوم اللغوي للفظة (شهد) وإنَّما الملحوظ انَّه طوّر هذا اللفظ إذْ توسّع في دلالته ومقصديته فحملهُ على معنى الإقرار والاعتراف والإيمان إذن فالعلاقة بين المعنيين واضحة بيّنة. فالذي يشهد بعينيه من حضور الشيء ومعاينته يتحول ذلك التأكيد إلى إيمان قلبي ثابت واعتراف وإقرار بما شهد وهذا لعمري المعنى الاصطلاحي لكلمة (الشهادة) وقد جاء عليها

---

(١) تراجع بعض المعاجم اللغوية منها: القاموس المحيط، والمصباح المنير، ومختار الصحاح مادة (شهد)

قوله تعالى: ((**رَبَّنا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**)) سورة ال عمران /٥٣. فإذا عرفنا ذلك تمام المعرفة تبّين لنا جلياً وظهر أنّ معنى الشـــهادة الأولـــى : (**اشهد أن لا إلـه الا الله**) هـــو اعتراف وإقرار بوحدانية الله تعالى والإيمان المطلق به من غيـــر زيغ... وهذا لايكون ولايحصل إلاّ عندما يستحضر المرء ربه الذي هو متعلقه في روحه وقلبه ووجدانه في جميع أوقاتـــه وأفعالـــه وأقواله...لأن عمل المرء لايصح ما لم يستند إلى عقيدة التوحيـــد الرباني...

أمّا الشهادة الثانية (أنّ محمداً رسول الله) فهو إقـــرار أيضـــاً واعتراف بحقّ الرسول محمد (ص) الذي هو أصدق من أقرّ وآمن واعتقد واعترف بوحدانية الله تعالى وأقامها على وجهها الأقـــوم والصحيح...أذن فالإيمـــان بـــالله ســـبحانه والإيمـــان برســـوله محمد(ص) هو معنى ومقصد الشهادة الاصطلاحي بوصفها ركنـــاً من الأركان التي بُنِيَ عليها الإســـلام. والملحـــوظ أنَّ (الشـــهادة والشهيد) لم يقتصر مقصدها ومعناها في الاستعمال القرآني على الاعتراف والإيمان والاقرار بوحدانية الله وبرسالة الرسول (ص) وإنّما أخذ مقصداً أو مدلولاً آخر حتى تحسَّب أنَّهُ كاد يتخصص في الاستعمال العام على معنى من يقتل في سبيل الله عنـــد الجهـــاد.

وعليه فـ(الشهيد) في التفكير الإسلامي هو الذي يهب نفسه ابتغاء مرضاة الله فيقتضي في سبيل الله وإنّ لفظة ((الشهيد) التي تُجمع على (شهداء) التي ساقها القرآن فيها من البيان المشرق والإعجاز السّاحر الأخّاذ إذن فاطلاق القرآن تسمية الشهيد على هذا الانسان الذي يجاهد فيبذل نفسه فيموت لتبقى كلمة الله هي العليا يبدو أنّه متأتٍ من أنّ هذا الإنسان قد التصق بكلمة التوحيد كلمة الشهادة التي بقيت حاضرةً مستحضرةً في كيانه ووجدانه يدافع عنها ويعلن عن وجودها ويعمل على نشرها وانتشارها فإذا ما لقي اعداء هذه الكلمة الصائلة قارعهم وحاربهم بعد ان تكالبوا عليه حتى يقضي في سبيل مبدئه وهو في اشد حالات الإقرار والتصديق لمعنى شهادة (لاآله إلاّ الله) التي سقط من اجلها ميتاً وهي عالقة في قلبه مرتسمة على شفتيه يعلنها ويعليها..!!

ومن هنا نلحظ العلاقة الحميمية بين المفهوم اللغوي والمفهوم الاصطلاحي فـ (الشهيد): صيغة لغوية على زنة (فَعِيل) تدلُّ على المبالغة في الحضور والمعاينة.. وشهيد لايقضي حتى يبذل كلُ ما في وسعه لإعلاء كلمة الحق، كلمة الشهادة. وبعد: فالاستعمال الشائع لكلمة (الشهيد) قد تحدّد وتخصّص الآن فهو يعني : كلّ من يقتل في سبيل الله تعالى وقد جاء تعبير القرآن ليؤكد أيضاً هذا

المعنى نفسه منه ما جاء في قوله تعالى ((**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسولَ فأولئكَ مَعَ الذين أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النّبيين والصّدّيقينَ والشّهداءِ والصّالحين وَحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً**)) سورة النساء/ ٦٩. وقوله تعالى: ((**وأشْرَقتِ الأرضُ بنورِ ربّها وَوضِعَ الكِتابُ وجيءَ بالنّبيينَ والشّهداء وَقُضيَ بَيْنَهُم بالحقّ وَهُم لايُظْلَمُونَ**)) سورة الزمر/٦٩. فهنيئاً لكل شهيد فإنّ له المال الطيب والمثوبة العظمى التي منحهم الله تعالى إياها وهي (الجنّة)...

دلالة الزوج والمرأة في الاستعمال القرآني

لقد أحاطت القدرة الإلهية بكل شيء علماً، وإحاطتها كانت بجميع الإلفاظ التي تجري على السنة أرباب اللغة التي أعطت القرآن الكريم هذا النظم الرائع العجيب المعجز، حيث وضع اللفظ المناسب للمعنى في دقة فائقة وإحكام شديد، إذ لايمكن أن يدخل عليها تقويم أو تعديل... إذن فالقرآن الكريم ينتقي ألفاظه ويختارها لما بين هذه الألفاظ من فروق دقيقة في الدلالة...فهو يستعمل كل لفظة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد حتى يكاد السامع يؤمن أنّ هذه اللفظة خُلِقَت بعينها لهذا المكان أو الموضع وأنّ لفظة أُخرى لاتؤدي هذا المعنى الذي أفادته اختها وعليه ففي الكلام العربي ألفاظ متنوعة يحسبها أغلب الناس متساوية في

الدلالة أو المضمون غير أنّ لكل لفظة تميزها عن اللفظة التي تقاربها في بعض المعنى...أو تشترك معها في بعض الدلالة، والقرآن العظيم قد يستعمل لفظاً معيناً دون مرادفه؛ لأنَّ اللفظ القرآني الذي اتى عليه له خاصية في دلالته على المراد وميزة في إشارته الى المقصود لاتكون مرادفة وذلك أدرك العرب الفصحاء الخُلّص الذين نزل فيهم القرآن لذا انّ لكل لفظة في تعبير القرآن لا يمكن ان تقوم مقام غيرها ومثالنا على ذلك لفظة: (الزوج والمرأة) إذ لوحظ في تعبير القرآن أنّه يستعمل مّرة لفظة (زوج) ومّرة أخرى يستعمل لفظة (امرأة) ويبدو للنظر انّه يمكن ان تقوم أحدى اللفظتين مقام الأخرى وكلاهما من الألفاظ القرآنية ولكن هذا يأباه البيان القرآني! وعند تدبر سياق الاستعمال القرآني لهاتين اللفظتين نهتدي إلى سر الدلالة فلفظة (زوج) مشعرة بالمجانسة والتوافق والوئام الحاصل بين الرجل وحليلته ولذلك أنت تلحظ التعبير القرآني يستعمل هذه اللفظة أي (زَوج) حينما يكون التوافق والالتحام والانسجام حاصلاً بين الزوجين وهذا ما تراه في البيان القرآني جلياً حينما تحدَث عن آدم وزوجه كما في قوله تعالى : ((**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**...)) سورة البقرة/٣٥. أو تكون الزوجة تشريعاً أو حكماً وهذا ملحوظ وبيَن

في آية الزوجية كما في قوله تعالى: ((**وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنْفسِكُمْ أزْوَاجاً لتَسكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...**)) سورة الروم/ ٢١ إذن فلفظة (زوج) يُؤتى بها في البيان القرآني للتدليل على التوافق بين الزوجين سواء أكان هذا التوافق في الدين أو في الطبع أو في الاعتقاد أو في غير ذلك... لأنّ الأصل في هذه اللفظة في اللغة : ((الشكل ليكون له نظير))أي: الشيءالمكمل لمنفرد وهذا لايكون مكملاً إلاّ إذا كان موافقاً وملائماً. وإذا تعطلت هذه الزوجية من المودة والاتفاق والانسجام بتأبين في الدين أو في العقيدة أو بخيانة... فالقرآن يستعمل لفظة (امرأة) لا (زوج) وهذا المنحى الاستعمالي يتجلى في البيان القرآني عندما تحدث عن امرأة فرعون حيث تعطلت بينهما آية الزوجية إذ كانت امرأته مؤمنة وهو كافر فاستعمل القرآن لفظة (امرأة) بدل (زوجة) أو (زوج) لعدم التوافق بينهما في الدين أو الاعتقاد وهذا بيّن في قوله تعالى: ((**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امرَأتَ فِرْعَوْنَ...**)) **سورة التحريم** /١١.

وكذلك الحال في (امرأة نوح) و (امرأة لوط) فالقرآن لم يستعمل معهما لفظة (زوج) إذ لا اتفاق بينهما في الاعتقاد ايضاً فاستعمل لفظة (امرأة) كما هو ملحوظ في قوله تعالى: ((**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرَأتَ نُوحٍ وَامرَأتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا**

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...)) سورة التحريم/١٠. وإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر كأن يصاب بعقم أو غير ذلك تلحظ الاستعمال القرآني يورد لفظة (امرأة) لا (زوج) وهذا يتبدى في التعبير امرأة ابراهيم العجوز العقيم إذ قال تعالى : ((**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ**.)) سورة الذاريات/ ٢٩.

وقال أيضاً في امرأة زكريا العاقر وهو يضرع إلى الله سبحانه ((**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ** ...)) سورة أل عمران/ ٤٠ وبعد: فالقرآن يجلو لنا هذا الملحظ الدلالي الدقيق بين هاتين اللفظتين والفارق الدقيق بينهما!.

لفظة (الكَيْد) في المدلول القرآني

الكيد لفظة تدخل فيها صفات كثيرة منها تمدح ومنها تذم ولكنها تشترك عموماً في معاني التدبير والمعالجة والحيلة وقد تجمع الحميد والذميم قولهم (الحربُ مكيدة)؛ لأنَّها معالجة وتدبير وهي في الوقت نفسه حيلة وخداع تتطلبها مواقف القتال وظروفه وقد تذم أحياناً في هذه المواقف كما تذم في سواها. ولهذا نلحظ أنَّ بعض القرآنيين لفت النظر إلى مدلولية لفظة الكَيد قائلاً: الكيد:

ضرب من الاحتيال وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم كثيراً وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعد ذلك محموداً[٢] و (الكَيْد) صفة تعدد ذكرها واستعمالها في القرآن الكريم إذ جاءت منسوبة إلى الله تعالى من دون مقابلة وذلك في قوله تعالى: ((**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**...) سورة يوسف /٧٦. فـ (كدنا ليوسف) معناه صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي اخاه عنده. ونلحظ في موضع آخر أنَّ كلمة (الكيد) جاءت منسوبة إلى الله تعالى على جهة المقابلة..كما في قوله تعالى ((**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً**)). فقوله ((**يَكِيدُونَ كَيْداً**)) معناه: أنَّ هؤلاء المشركين الكفّار يعملون المكايد لإطفاء نور الله وإبطال شريعة محمد (ص). أما قوله: ((**وَأَكِيدُ كَيْداً**)) فهو الكَيْد الإلهي ومعناه: أجازيهم على كيدهم بالامهال ثم النكال إذّ أخذهم أخْذ عزيز مقتدر، أو كما قال بعض المفسرين إنَّ معناه: أقابلهم بكيد متين لايمكن ردُّهُ.

وهذا يدل على أنَّ الكيد الإلهي لهُ خصوصية في الاستعمال القرآني فهو يتناسب تناسباً دقيقاً مع الذات العلية، ثم إنَّ الكيد

---

[٢] مفردات ألفاظ القرآن /٧٢٨ (كيد) .

الإلهي وإن قُورنَ بالكيد الإنساني فلا شكَ في أنَهُ يختلفُ عنه اختلافاً كبيراً. ثم نلحظ أنَ الكَيدْ جاء مَسُوقاً منسوباً الى إبراهيم (ع)..كما في قوله تعالى: ((**وَتَاللهِ لأكِيدَنَّ أصنامَكُم**..)) سورة الأنبياء/٥٧. وقوله : ((لأكيدَنَّ أصْنامكمْ)) معناه: لاكسرنها، وانّما عُبِّر عنه بالكيد؛ لأنَّ في كسرها تكلفة للحيلة. وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد أنَّ (الكيد) يساق أيضاً منسوباً إلى الشيطان الرّجيم كما في قوله تعالى: ((**فَقَاتِلُوا أولِيَاءَ الشَّيطَانِ إنَّ كَيدَ الشَّيطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**..)) سورة النساء/٧٦ وقوله : ((**إنَّ كَيدَ الشَّيطَان كَانَ ضَعِيفاً**))معناه: أنّ سعي الشيطان أو حوله كان ضعيفاً، وقد عبِّر عنه بالكيد؛ لأنَ في سعيه تحيلاً ومكراً... ثُمَّ ورد (الكيْد) منسوباً إلى فرعون كما هو في قوله: ((**فَتَوَلّى فِرعَونُ فَجَمَعَ كَيدَهُ ثُمَّ أتَى**..)) سورة طه /٦٠. ومعنى ذلك/: فذهب فرعون فجمع ما يكاد به بالسحرة وآلاتهم. وقد استعمل (الكيد) ايضاً منسوباً على جهة الإضافة إلى الكافرين في قوله تعالى: ((**ذَلِكُمْ وَأنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيدِ الكَافِرِينَ**..)) سورة الانفال/ ١٨.. والمعنى: ذلك الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف مسعى الكافرين وتوهينه، حتى لاتقوم لهم قائمة.. ونظيره ما جاء في سورة يوسف أية ٥٢..إذ جاء (الكيد) أيضاً منسوباً الى (الخائنين)

على جهة الإضافة كما جاء في قوله تعالى: ((**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لايَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ..**)) سورة يوسف/ ٥٢، أي لايوفق الخائنين ولا يسدّد خطاهم وقد ورد (الكَيْد) وصفاً للمرأة من خلال الآيات في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، فقد جاء وصفهن به مرتين على لسان يوسف (ع) كما في قوله تعالى: ((**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ..**)) سورة يوسف/٣٣. وقوله تعالى : ((**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**)) سورة يوسف/٥٠. وجاء مَرة واحدة مكرراً على لسان العزيز في السورة نفسها.. كما في قوله تعالى: ((**فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**)) سورة يوسف /٢٨. بعد أنْ اطّلعنا على المدلول العام للفظة (الكيد) ثم ورود هذه اللفظة بمفاهيم ومقاصد متعددة ومتنوعة على وفق السياقات القرآنية التي ترد فيها هذه اللفظة..ثُمَّ الوقوف عند أهمّ المواضع التي جاءت فيها لفظة الكيد وصفاً للنساء في القرآن إذ نلمح منها أنَّ معناها قد خصّص وحدّد فهو كيد وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها أجل، فهو كيد اتسمن به وصدر عن طبائعهن وخلائقهن، وهذا ما يفهم من الاضافة الى ضميرهن نحو: ((**وَإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ**)) ونحو ((**إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ**

عَلِيمٌ)، ونحو: ((إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)). وهذا ما ورد في مواضع الآيات الثلاث المتقدمة.

إذن فلفظة (الكيد) التي وُصِفَت بها المرأة في القول القرآني حمل مفهوماً خاصاً ودلالة خاصة غير ما يفهم منها بمعناها العام فهو كيد كما يلمع من القرآن ويلمح ينسجم مع تكوين المرأة وطباعها وأخلاقها فإيحاء اللفظة من نوع نفسي يتناسب ويتواءم وطبيعة المرأة وما جبلت عليه من الإخفاء والتستر والدهاء والتحيل... وهذا كله ينبعث من مدلولية: (الكَيْد) داخل نفس المرأة كما يصوره القرآن وهو إيحاء توحي به هذه اللفظة وهي تحيا في السياق القرآني

لفظة (مُرْضِعَة) في الاستعمال القرآني

لقد صفى القرآن الكريم اللغة العربية فأشاع في الاستعمال أصفى ألفاظها جرساً وأحلاها نغماً وأدقها تعبيراً وأورد كلّ لفظة في مكانها اللائق والمناسب ببراعةٍ فائقةٍ والتزامَ الدّقّة في مراعاة دلالة الألفاظ ومعانيها وإيرادها مواردها بطريقة افتتانيةٍ وأعجازيةٍ فريدةٍ!! ولذلك أنتَ ترى هذه الألفاظ قد نُسِقَت ونُظِمَت نظماً معجباً

معجزاً... وعليه فالقرآن الكريم يستعمل اللّفظ ملاحظـــاً فيـــه أن يكون مناسباً للمعنى المطلوب وملائماً تماماً للغرض المراد وذلـــك في دقّةٍ واحكامٍ... المعهود في لغة العرب، أنَّ هناك كلمـــات تقـــع أوصافها وهي خاصـــة بالمؤنـــث مثـــل: (الرضـــاعة، والحمـــل، والطلاق..) والمعروف أيضاً أنَّ هذه الصفات خاصة بـــالمرأة ولا لبس في ذلك ولا ابهام ومن هنا تبطل الحاجة إلى وضـــع علامـــة التأنيث، ولذلك يقول العربي: (امرأة حامل ومرضع وطالق..) فهي على معنى: ذات حملٍ وذات ارضاعٍ أو طلاقٍ...

ولكن العربي في استعماله اللغوي قد يأتي بـــ(التاء) أحيانـــاً لارتباط ذلك بظرفٍ معينةٍ وعلى ذلك جاء التعبير الرائع في القرآن الكريم عن احداث يوم القيامة وأهوالها والفزع الذي يصيب الناس فيه، بحيث لا يدع في النفس بقية من وعي!! فيقـــول: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ**)) سورة الحج/ ١-٢. وأقول: اذا كانت طريقة نظم الكلام عند العرب في الغالب أنَّهم يقولـــون : (امرأة مرضع...) من دون (التاء) يعدّ هـــذا وصـــفاً مخصوصـــاً للمرأة ولا يكون هذا الوصف للرجل فلماذا جاء القرآن الكريم بـــ (التاء) [مرضعة] مع أنَّهُ وصف يختصّ به الأناث؟ والجواب عن

ذلك: أنَّ التعبير القرآني جاء بهذه الصيغة بذاتها لسرّ من الأسرار القرآنية وللطيفة من اللَّطائف الربّانية! وعليه فان دخول (التاء) هنا يتضمن فائدة لاتحصل دونها فتعيّن الإتيان بها وهي أنَّ المراد بـ (المُرضعَة) فاعلة الإرضاع المشتغلة بفعل الإرضاع إذن فالمطلوب فعل الارضاع لا الوصف المجرّد ولو أُريد الوصف المجرّد لكونها من أهل الإرضاع لقيل: (مرضع) ولكن القرآن، الكريم استعمل (مرضعة) إيذاناً بمن تقوم بفعل الإرضاع وتباشرهُ عملياً بذا فمراد تعبير القرآن بهذه الصيغة هو : أنَّ الساعة تأتي والأمُ على حال ارضاعها طفلها وهي أشدُّ ما تكون حنوّاً عليه فتذهل عنه لشدة هول زلزلة هذه الساعة وكأنه شيء لا علاقة لها به وفي هذا دلالة على فداحة الأهوال وفظاعتها كما ألمعت وقد جاء قوله تعالى: ((**عَمَّا أَرْضَعَتْ**)) توكيداً للمعنى بأن المراد: المرضعة التي ترضع بالفعل أو التي تحقق فعل الإرضاع دون التهيؤ له... لذا لو بدّل أو غيرّ استعمال أيّ لفظة مكان الآخرى لما أعطت اللفظة الثانية أو الصيغة الثانية المعنى المراد والمقصد المطلوب.. وأؤكد: أنَّ القرآن الكريم لو استعمل لفظة (مرضع) مكان لفظة (مرضعة) لم تكن للفظة الدلالة نفسها.

لفظة (المطَفِّفين) كما تبدو في السياق القرآني

إنَّ أهم شيء يسعى إليه الكاتب أو المتكلم هو الإفصاح عمّا يجول في خاطره أو التعبير عمّا يجيش في فؤاده من أفكار... ولكن على الكاتب او المتكلم ان يعرف دلالة اللفظة التي يستعملها وايحاءها في ذهن المتلقي ليكون تعبيره قد أفصح وأصاب المعنى. وإذا ما أشكلت على أحد دلالة لفظة ما فأنَّهُ يجد حل هذا الإشكال وتوضيح المقصد في معاجم اللغة ، ولم يكن كافياً لفهم معنى لفظة من الألفاظ أن ننظر النظرة العجلى في المعجم اللّغوي بل لابُدَّ من البحث عنه في نظم الكلمات أو قل في سياقها اللغوي وبعبارة أخرى انّ معنى اللفظة يتحدد على وفق السياق اللغوي الذي ترد فيه هذه اللفظة بحيث يكون معنى اللفظ جزءاً من معنى السياق إذ انَّ اللفظة تحيا في السياق. ومنها (التّطفيف) وهو النقص في الكيل.

يمكن أن نتوقف متدبرين عند إحدى الألفاظ اللّغوية التي بَدت حقيقة معناها وأداء دلالتها المقصودة من خلال السياق القرآني الذي وردت فيه منها لفظة (المطفّفين) الواردة في قوله تعالى: ((**وَيلٌ للمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخسِرُونَ**..)) سورة المطففين/ ١-٣. فلفظة (المطففين) جاءت من (الطف) و(الطف) فيما تذكره المعاجم اللغوية لفظة تدلّ على أكثر

من دلالة منها: الموضع، والجانب، والشاطئ، وطفـه برجلـه أو بيده بمعنى: رفعه، وطف الشيء منه بمعنى: دنا، وطف الطـائر بمعنى: بسط جناحيه....

ولنتسائل عن معنى لفظ (المطففين) كمـا وردت فـي القـول القرآني هل كانت تتضمن جميع الدلالات التي ألمحت إليها المعاجم اللغوية؟.

الجواب: إنّ هذه اللفظة تعلقت دلالتها بوضع الميزان والكيـل فهي تدلّ على النقص والبخس في الميزان وقد ألمحت إلـى هـذا المعنى المعاجم اللغوية أيضاً. ولكن الملحوظ أنَّ القرآن الكريم قد استعملها بوجهين متقابلين متضادين فهي تدلَ على التمام كما أنّها تدلّ على النقص والبخس وهذا ما ينبئ عنه السياق القرآني فلـو وقف القارئ المتدبر عند النون الثانية من قوله تعالى (يستوفون) لانصرف معنى (التطفيف) إلى التمام واحتمال الزيادة فـي الكيـل ولكن العقل أعتلق معنى آخر مضاداً لـلأول حينمـا بلـغ لفظـة (يخسرون) القرآنية عندئذ تصور العقل التضاد بين الكيل المتـرع والكيل الناقص وبين الكفة الهابطة والكفة الصاعدة، وهذا ما دلّل عليه السياق القرآني الذي يقدّم لنا مفهوماً محدداً لهـذه اللفظـة فهي تدّل على النقصان كما أنّها تدلّ على التمام المشوب بزيـادة

واختيار القرآن الكريم هذه اللفظة أعني المطففين بهذين المدلولين المتقابلين اختيار جاء لحكمة بلاغية سامية هي للاقتصاد في اللفظ والإيجاز فيه إلى أبعد حد مسايرة لما يقتضيه المقام من إصدار الحكم على هذه الطائفة من الناس بأقصر عبارة ممكنة.

مدلولية اللفظة الوصفية في التعبير القرآني

عُنِيَ العرب بالألفاظ عناية فائقة مما حداهم هذا على ان يهتموا بالمعاني؛ لأنّ قوة اللفظ تتأتى من قوة المعنى، ولهذا خصص العالم اللغوي العبقري (ابن جني) فَصْلاً في كتابه الخصائص وسمه بـ (قوة اللفظ لقوة المعنى) ونعته بقوله (هذا فصل في العربية حسن). إنّ هذا التوجيز يدعنا ان نقول: إنّ دارس اللفظة القرآنية المدقق فيها الذي استحضر قلبه وعقله سيلمس أجمل الجمال وأبرع البراعة في قوة حركتها ومقدار سيطرتها على الوجدان والمخيلة ومدى تأثيرها النفسي كما يلمس فيها دقة في الوضع أي: إحلال اللفظة في مكانها المخصص لها في تركيبها القرآني، وكأنّما هذه اللفظة قد خُلِقَت خلقاً لذلك، إنّ هذه اللفظة

الشاخصة الماثلة بكل مشخصاتها وظلالها وألوانها أبـدعتها يـد عزيز حكيم..

وفي هذا المقام سأحصر الكلام علـى اللفظـة الوصـفية أو (النعتية) وأعني بذلك ما يعقبه القـرآن علـى اللفظـة السـابقة فيصفها وصفاً دقيقاً وخلاباً بغية اجتلاء مدلولاتها أو مضـموناتها من خلال سياقها القرآني من ذلك لفظة (مقتدر) الوصفية في قوله تعالى: ((**فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ** .)) سورة القمر/ ٤٢. فالتعبير القرآني تخَير لفظة (مقتدر) التي هي على صيغة اسم الفاعل ولم يختر لفظة (قادر) وذلك لأنَّ (مقتدر) في الآية أوفق من (قـادر) ؛ ولأنَّ الموضع لتفخيم الأمر الأخذ كمـا يقـول (ابـن جنـي)[٣]، والملحوظ أنَّ لفظتي (قادر ومقتدر) سيقتا للدلالـة علـى الـدوام وعدم الانقطاع ولكن (مقتدر) أبلغ من (قادر) لدلالته على أنّه قادر متمكن من القدرة ولايرد له شيء عن اقتضاء قدرته ويسمى هذا: قوة اللفظ لقوة المعنى كما ألمعت. ونلحظ التعبير القرآنـي يـؤثر لفظة على أخرى لإصابة المعنى الدقيق وتصوير المشـهد بـأدق تعبير فهو يؤثر كلمة (مسكوب) الواردة في قوله تعالى: ((وَمَـاءٍ مَسْكُوبٍ) سورة الواقعة/٣١. مكان كلمة مثل (غزير) التي لاتلتقي

---

[٣] ينظر الخصائص ٣/ ٢٦٥.

معها في البناء ولكن قد تلتقي معها في المعنى العام ولكن التعبير بلفظة (مسكوب) الوصفية وهي اسم مفعول أدق في بيان غـزارة الماء فهو ماء لا يقتصد في استعماله كما يقتصد أهل الصـحراء فهو ماء يُستعمل ولا يخشى نفاده وقد ألمـع بعـض الدارسـين القرآنيين إلى أنّ كلمة (مسكوب) ربما أوحت إلى معنى الإسـراف في الاستعمال وهذا يمثل في حقيقته دقة اسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ونلحظ أيضاً أنّ التعبير القرآني قد اختار لفظة (المشحون) الواردة في قوله تعـالى: ((**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**..)) سورة يَس/ ٤١، ولم يختر لفظة (المملوء) والبنـاء واحد وهو اسم مفعول ورُبّمـا كـان تفسـير (المشـحون) بـ (الممتلئ) قريباً ولكن يُلمح في (الشّحنة) حس الدلالة على أقصى ما يحتمله الفلك من امتلاء...

ويختار القرآن لفظة على صيغة معينة مكـان لفظـة بصـيغة أخرى لملحظ دلالي فهو يعدل عن صيغة اسم الفاعل إلى صـيغة اسم المفعول المضعفة لتقوية المعنى والتوسع من نطاق الدلالـة فهو يستعمل لفظة (مُطَهَّرَة)على زنة (مُفَعَّلَة) كما في قوله تعالى: ((**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**..)) سورة البقرة/٢٥. ولم يقـل (طـاهرة) بصيغة اسم الفاعل؛ لأنّ لفظة (مطهرة) الوصـفية فيهـا فخامـة

لصفتهن ليست في لفظة (طاهرة) وهي الإشعار بأنَّ (مطهراً) قد طهرهن وهو الله سبحانه وتعالى[٤].

وما عرضته يمثل أمثلة يسيرة تنبئ عن أنّ كل لفظة وصفية تحمل مدلولاً دقيقاً ناتجاً عن الدقة في الوضع والاختيار.

التّوصيف بأسم الفاعل في التّعبير القرآني

إنّ الذي أعنيه بالتوصيف بدءاً ليس الصورة التي تنسجها اللفظة أو العبارة القرآنية فهذا يدخل في مجال التصوير القرآني وإنّما الذي أعنيه أو أقصده بالتوصيف: هو ما يعقّبه القرآن على اللفظة بذكرِ صفةٍ لها وعلى وجه التخصيص التوصيف بصيغة (اسم الفاعل) وبيان دلالة ذلك في التعبير القرآني. من المعلوم أنّ اسم الفاعل صيغة تدّل على الحدث وصاحبه على وجه الحدوث والتغير فإذا قلنا: (هذا الرجل كاتب) فإنّ لفظة (كاتب) في التركيب اسم فاعل وقع وصفاً تدلُ على أنَّ الكتابة حصلت في زمنٍ من الأزمان فهي لاتستمّر؛ لأنَّ صاحبها قد ينفكّ عنها...

---

(٤) ينظر :تفسير الكشاف للزمخشري ١-٢/٥١، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/١١٧-١١٨، وأيضاً تفسير أبي السّعود ١/٥٦

وقد ذكر العلماء أنّ الأسماء تدلّ على الثبوت والفعل يدلّ على الحدوث قال عبد القاهر الجرجاني: (إنَّ موضوع الاسم على أنَّ يثبت به المعنى لشيءِ من غير أنَّ يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء.)[٥] وبما أنّ أسم الفاعل من الأسماء لذا اقتضى القول: إنّ الأسماء على درجة واحدة من الدلالة على الثبوت إذن فاسم الفاعل كما يرى بعض الدارسين المحدثين: يقع وسطاً بين الفعل والصفة المشبهة فالفعل يدّل على التجدد والحدوث أمّا أسم الفاعل فهو أدوم وأثبت من الفعل ولكنه لايرقى الى ثبوت الصفة المشبهة. ومن هنا تكون دلالة اسم الفاعل على الثبوت إذا ما قُورِنَ بالفعل ودلالته على الحدوث والتغير، إذا ما قورن بالصفة المشبهة. ويظهر أنّ اسم الفاعل في التعبير القرآني قد جاء وصفاً على سبيل الدوام والثبوت كما هو في قوله تعالى: ((**حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**...)) سورة غافر/١-٣.

فـ (غافر الذنب) وما عطف عليه (قابل التوب) اسما فاعل يدلان على ثبوت الحدث واستمراره إذا لم يأتِ التعبير القرآني بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد وانّما جاء الوصف على

---

[٥] دلائل الإعجاز /١٧٤

صياغة اسم الفاعل لقصد الوصف الثابت اللازم إذ جرت أوصافاً على أعرف المعارف وهو اسم الله تعالى وذلك؛ لأنّ الله تعالى لاتنقطع مغفرته فهو غفور رحيم ولاتنقطع توبته فهوقابل التوب وهو التواب الرحيم وقد جاء التوصيف باستعمال اسم الفاعل في قوله تعالى: ((**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**..)) سورة الفاتحة/١-٣. فلفظة (مالك) تدل على اتصاف الله تعالى بهذا الوصف على وجه الدوام والاستمرار فهو وصف ثابت لا عارض ولا محدّد بزمنٍ من الأزمن والملحوظ أنَّ لفظة (مالك) بدلالتها على الثبوت تنزل منزلة الصفة المشبهة وان خالفتها في الصورة اللفظية ويظهر أيضاً تأنق اسلوب القرآن في اختيار الألفاظ فلفظة (مالك) الوصفية عند بعض اصحاب النظر القرآني أمدح لأنّه لا يكون مالكاً للشيء إلاّ وهو يملكهُ وقد يكون ملكاً للشيء ولايملكه. لذا فالوصف (بالمالك) أعم من الوصف (بالملك) والله مالك كل شيء وقد وصف نفسه بأنّه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء فوصفه (بالمالك) أبلغ في الثناء والمدح من وصفه (بالملك) فالله تعالى هو المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه. ونجد القرآن الكريم عندما يُصوّر حال اهل الجحيم ويقابله بحال السعداء أهل الجنّة، يستعمل أوصافاً مصوغة على اسم

لفاعل للدلالة على استمرار الحال وديمومته إذ لم يستعمل أفعالاً، لأنها لم تدل دلالة اسم الفاعل. فاستعمل (حامية) وصفاً للنار في قوله تعالى: ((**تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً**.)) سورة الغاشية / ٤. للدلالة على شدة هذه النار واستمرار ديمومتها على الكافرين والخوض فيها، واستعمل أيضاً لفظة (آنية) اسم الفاعل وصفاً للعين في قوله تعالى: ((تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ..)) سورة الغاشية/٥. للدلالة على أن أهل لظى يسقون هذه العين ذات الحرارة المتناهية على وجه الدوام والاستمرار. وقد أتبع هذه الأوصاف أوصافاً أخرى على صياغة اسم الفاعل تُصوّر حال أهل الجنّة قال تعالى: ((**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**..)) سورة الغاشية/ ١٠. وقوله تعالى: ((**فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ**..)) سورة الغاشية/ ١٢. فقد وصف الجنةَ بـ (عالية) ووصف العين بأنّها جارية للدلالة على الدوام والثبات.

وقد تُعيِّن القرينة كأنْ تكون لفظية على دلالة التوصيف باسم الفاعل الحدوثية، كما في قوله تعالى: ((**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**..)) سورة الحاقة/ ٢٤، فاستعمل اسم الفاعل (الخالية) وصفاً للايام للدلالة على انقضاء الحدث وعدم الثبات بدليل اللفظة نفسها، فالخالية هي ايام الدنيا من (خلا) إذا مضى، وهنالك دليل آخر على انقطاع الحدث هو لفظة (اسلفتم). والقرآن

قد يستعمل أحياناً صيغة اسم الفاعل بالنص على دلالـــة المعنـــى الدائم والمستمر كما في قوله تعالى: ((**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**..)) سورة القمر/١٩، فلفظة (مستمر) جاءت وصفاً لـــ (نحس) وقيل لــ (يوم). وقد نصَّ ابن القيم في تفسيره على أنَّ اللفظة في سياق الآية للتدليل علـــى اســـتمرار العـــذاب وديمومته على القوم المكذبين (قوم عاد) إذ يقول: (وكان اليـــوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم فيه أي لايقلع عنهم كما تقلـــع مصائب الدنيا التي تأتي وتذهب بل هذا النحس دائم على هـــؤلاء المكذبين للرسل). وقد لحظت هذا المعنى عند الزمخشـــري فـــي كشافه.[٦] إذ يقول: (مستمر) قد استمرّ عليهم ودام حتى أهلكهـــم وقد جلَّى هذا المعنى أيضاً ابن كثير في تفسيره بقولـــه: اســـتمرّ عليهم نحسه ودماره لأنّه يـــوم اتصـــل فيـــه عـــذابهم الـــدنيوي بالأُخروي.[٧] وبعد: فاستعمال التوصيف باسم الفاعل في أســـلوب القرآن كثير ولكن نطاق القلم مقيد بالمقام.

---

[٦] ينظر: ٣-٤/ ١٢٠٣

[٧] ينظر تفسيره ٢٦٣/٤

بناء (فُعَلَة) في القرآن الكريم

(فُعَلَة) (بضم الفاء وبفتح العين واللام): هذا البناء يـدلُ علـى الاعتياد فلا يُقال: لُعَنَة، وضُحَكَة إلاّ المكثر المعتاد، لذا قِيلَ: رجل حُمَدَة للناس: يكثر حمدهم، ورجل هذرة، أي : كثير الكلام، ورجل ضُحَكَة: للكثير الضّحك، وحُطَمَة: للكثير الأكلْ، ويقال: رجل لُعَنَـة أي: كثير اللّعن، وعليه يكون كل لفظ على (فُعَلَة) وهو وصف فهو للفاعل نحو: (هذرة) و(طلقة) و(سخرة): إذا كان مطلاقاً سـاخراً من الناس، فإن سَكّنت العين من (فُعْلَة) وهو وصف فهو للمفعول تقول: رجل لُعْنَة، أي: يلعنه الناس فإن كان هو يلعن الناس قلت: (لُعَنَة). ولم يأتِ على هذا البناء في القـرآن الكـريم إلاّ لفظتـان اثنتان جاءتا متتابعتين في سـورة (الهمـزة) وهمـا (الهمـزة) و(اللمزة) وذلك في قوله تعالى: ((**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَـزَةٍ**...)) سـورة الهمزة/١. ولاتثريب على أنْ نُبيّن دلالة هاتين اللفظتين: جاء في تفسير الكشاف للزمخشري: الهمز: الكسر والطعن... والمراد بـه الكسر من اعراض الناس والغض منهم واغتيابهم والطعن فـيهم. ويقول بعض الدارسين القرآنيين المحدثين مطمئناً في إيجاد الفرق بين هاتين اللفظتين بعد الاحتكام الى القرآن الكريم: إنّ (الهُمَـزَة)

هو الذي يدأب على تحقير الناس والإيغال في تجريحهم ومن خلف ظهورهم و(اللُّمَزَة) الذي يدأب على مـواجهتهم بكلمـة السـوء تحقيراً لهم وغضاً من شأنهم.[٨] ومن ذلك نطمئن إلى القـول: أنّ (الهمز) و(اللمز): كلاهما كسر لأعراض الناس.

(فالهُمَزَة): صيغة مبالغة في (هامِز) واللُّمَزَة: صيغة مبالغة في (لامز) وكلاهما بمعنى العيَّاب. ويقرّر الزمخشـري فـي تفسـيره الكشاف[٩]: أنَّ بناء (فُعَلَة) يدلّ على أنّ ذلك عادة من الإنسان قد ضَرِيَ بها.... وصفوة القول: إنَّ (الهمزة) و(اللمزة) لفظتان تدلان على مبالغة الفاعل إذ إنَّ المراد بهما: هو المكثر في الطعن علـى الناس والقدح فيهم قد أصبح له هذا الوصف عادة مسـتمرة قـد ضَرِيَ بها ضراوة فكأنَّ ديدنهُ أنْ يعيب الناس وينتقّصهم...!

في دلالة لفظتي (الرّحمن الرّحيم)

قال الزجاجي: (الرَّحمن الرَّحيم) :صفتان لله عزّ وجلّ مشتقتان من الرَّحمة، فالرَّحمن: على وزن (فَعْلان) والـرَّحيم: علـى وزن (فَعِيل)[١٠] ويرى أبو عبيدة (معمر بن المثنى): أنَّ الكلمتين مـن

---

[٨] التفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ ١٧٢/٢

[٩] ينظر: ٣-١٣٧٦/٤

[١٠] اشتقاق أسماء الله /٥٣

صل واحد للمبالغة وهما بمنزلة (نديم وندمان)[11] ومن العلماء من يرى أنَّ (الرحمن) لايطلق إلاّ على الله تعالى من حيث إنَّ معناه لايصحّ إلاّ له فهو الذي وَسِع كلّ شيء رحمة، و(الرَّحيم) يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته.[12]

ويذكر الزجاجي/ أنَّ أكثر العلماء قولاً أنّ (رحمن) أبلغ من رحيم) وقد عضّد الزجاجي هذا الرأي وقوّاه بحجة أنَّ (فَعْلاَن) أشدّ مبالغة من (فَعِيْل) كما أنَّ (غضبان) للممتلئ غضباً و(عطشان) للممتلئ عطشاً أمّا (الرَّحمن) فعنده: ذو النهاية في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء.[13] ويذهب بعض العلماء إلى أنهما سواء في المعنى.[14] ويرى ابن الانباري أنَّ (الرحيم) أبلغ؛ لأنّه جاء على صيغة الجمع مثل (عبيد).[15] أمَّا أبو هلال العسكري في فروقه اللغوية فهو يرى أنَّ (الرحيم مبالغة لعدوله وأنَّ الرحمن أشدّ مبالغة؛ لأنَّه أشدُّ عدولاً وإذا كانَ العَدول على المبالغة كلما كان أشدّ عدولاً كان أشدّ مبالغة).[16]

---

(11) ينظر: مجاز القرآن ٢١/١

(12) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (رحم)

(13) اشتقاق أسماء الله /٥٣

(14) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٥٠٦/٢

(15) ينظر حاشية الصبّان/٢٩٧/٢

(16) ينظر: الفروق في اللغة/ ١٩٠

أما السهيلي فيرى أنّ (الرحمن) أبلغ من (الرّحيم)؛ لأنّهُ جاء على صيغة التثنية وهي تضعيف فكأنّ البناء تضاعفت فيه الصفة.[١٧] وأقول: فإذا كان العلماء قد اختلفوا فيما بينهم عن أيِّ يكون أبلغ في المعنى في هاتين اللفظتين المتقدّمتين المصوغتين على بناء (فَعْلاَن) و(فَعِيل) فلنا أنْ نميّز بين هاتين اللفظتين فنرى أنَّ صيغة (فَعْلاَن) التي وردت عليها لفظة (رحمن) تفيد الحدوث والتجَّدد وإنَّ صيغة (فَعِيل) التي وردت عليها لفظة (رحيم) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظانّ أنَّ هذه صفة طارئة قد تزول نحو: عطشان وريَّان ولو اقتصر على (رحيم) لظنَ أيضاً أنَّ هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها إذ قد تمرُّ على الكريم أوقات لايكرمُ وقدِ تمرُّ على الرَّحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أنَّ صفته الثابتة هي الرَّحمة وأنَّ رحمته مستمرة متجددة لاتنقطع حتى لايستبد به الوهم أنَّ رحمته تعرض ثمَّ تنقطع أو قد يأتي وقت لايرحم فيه -سبحانه- فجمع الله جلّ شأنه كمال الاتصاف بالرحمة!!

---

[١٧] ينظر: حاشية الصبّان ٢/٢٩٧

الملحظ الدلالي لصيغة (فَعُول)

(فَعُول) (بفتح الفاء وضم العين) نحو: غَفُور... إذ يذكر المحققون من أهل العربية أنّ هذه الصّيغة لمن دام منه الفعل،[18] أو لمن كان قوياً على الفعل[19] أو لمن كثر منه الفعل أو بالغ فيه.[20]... والأمثلة الواردة في القرآن والمصوغة على هذا البناء كثيرة جمّة، منها ما جاء وصفاً لله تعالى كلفظة (الودود) التي وردت في القرآن مرتين والودود:من الود: وهو محبة الشيء وتمني كونه، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ((**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**..)) سورة هود/٩٠.

فمجيء(ودود) على (فَعُول) يعني الكثرة الكاثرة في الود، والله جلّ شأنه كله ودٌّ ومحبة؛ لأنّهُ يود عباده الصالحين؛ ولأنّ فعل الودّ دائم لاينقطع ومن صفات الله التي بُنِيَت على (فَعُول) لفظة (غفور) التي وردت في نحو (٩٠) موطناً قرآنياً، منه ما جاء في قوله تعالى: ((**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍفَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**..)) سورة البقرة/١٧٣.

---

[18] ينظر: ديوان الأدب للفارابي ٨٥/١

[19] ينظر: الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري/ ١٥

[20] ينظر: همع الهوامع للسيوطي ٩٦/٢.

فالغفور: أُخِذَ من: غفرت الشيء: إذا غطّيته وسترتهُ، فكان (الغفور) يستر العبد برحمته او يستر ذنوبه، والمغفرة هذه لاتكون مؤقتة أو عارضة وأنَّما مستديمة فحينما يقال: إنَّ الله غفور أي: كثير المغفرة أو كله مغفرة ولأنّ متسع المغفرة لايكون إلاَّ عند الله تعالى.

ومن الألفاظ القرآنية التي صيغت على (فَعُول) لفظة (شَكُور) التي جاءت وصفاً لله تعالى ولعبده فيقال: العبد شكور لله أي: يشكر نعمه، وعليه قوله تعالى: ((**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**..)) سورة الإسراء/ ٣. وأما ورودها وصفاً لله جلَّ شأنه فمثال القول: شكور للعبد، أي يشكر له عمله وقد ورد عليه قوله تعالى: ((**وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**.)) سورة الشورى/٢٣.

وبان للنظر أنَّ لفظة (شكور) التي أُستعملتْ وصفاً (لله تعالى) تارة و(للعبد) تارة أخرى قد وردت في عشرة مواضع قرآنية.

ونلحظ أيضاً أنَّ القرآن الكريم قد صاغ عقداً من الألفاظ التي جيئَت على صيغة (فَعُول) وقد حشدها في مكان واحد حيث أفصح التَّعبير القرآني من خلالها عن طبيعة الإنسان وما جُبِلَ عليها من الطباع منها صفة (هلوع) التي وردت مرّة واحدة في قوله تعالى:

((**إنّ الأنسَانَ خُلِقَ هَلوعاً...**)) سورة المعارج/١٩. والهلـوع: الـذي لايصبر وهو أسوأ من الجزع فالإنسان جُبِلَ على الضـجر فهـو لايصبر على بلاء ولا يشكر على نعماء فكأنَّ هذه الصفة صـارت جزءاً من سجيته؛ لأنَّ فعل (الهلع) قد استولى عليه فأخذ منه كل مأخذ حتى قوي منه الفعل وكثر... أما عن الصفة الأخرى التـي أردفت في التعبير القرآني مع لفظة (هلوع) لتصوّر نحيزة الانسان فهي صفة (جزوع) الواردة فـي قولـه تعـالى: ((**إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً...**)) سورة المعارج/٢٠. والجزع ابلغ من الحزن كما يذكر بعض مفسري الألفاظ القرآنية! بذا فأنَّ (الهلـع) الإفحـاش فـي (الجزع) كما يذهب إلى هذا بعض أصحاب التفسير القرآني وبـذا يكون مقصد الآية الكريمة السابقة(...خُلِق هَلوعاً) أنَّ الإنسان إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض أو خوف كان مبالغاً في الجزع مستولياً عليه اليأس والقنوط...

أما اللفظة الثالثة التي تلفت إلى طبيعة الإنسان وجِبلّته التـي سُبِكَت سَبْكاً بديعاً على صياغة واحدة كحـال اختيهـا اللفظتـين السابقتَين فهي لفظة (منوع) التي وردت مرّة واحدة في القـرآن الكريم. فالمنع في اللغة: عكس العطية، يقال: رجل مانع أي: بخيل والمنوع كما في تعبير الآية الكريمة يعنـي: إنّ الإنسـان إذا مـا

أصابهُ خير من غنى وسعة رزق كان آيـــة فـــي مبالغـــة المنـــع والإمساك!!

ومن الألفاظ التي وردت على صياغة (فَعُول) لفظة (كَفُور) التي سيقت في اثني عشر موضعاً قرآنياً، وردت فــي موضـــع واحـــد وصفاً للشيطان الرجيم منه ما جاء في قوله تعالى: ((وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً..)) سورة الإسراء/ ٢٧. ووردت فـــي احـــدى عشـــر موضعاً قرآنياً وصفاً للإنسان منه ما جاء في قوله تعـــالى: ((إِنَّ الأِنْسَانَ لَكَفُورٌ..)) سورة الحج/٦٦.

والكفرفي اللغة: ستر الشي وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو النبوّة، والكفـــران في جحود النعمة أكثر كما يقرّر أصحاب النَّظر القرآني.

والملحوظ أنَّ لفظة (كَفُور) التي أوردها القرآن تشير في الغالب إلى المبالغة في كفران النعمة إذن (فالكفور) أنَّهُ قد قوي على فعل الكفر ودام...ومثل ذلك لفظة (كنود) التي وردت وحيدة في القرآن على هذا البناء كما في قوله تعـــالى: ((إِنَّ الأِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ..)) سورة العاديات/٦. أي أنَّهُ متمكّن من فعـــل الكفـــر بديمومتـــة... وهناك ألفاظ أخرى بُنِيَتَ على مثال (فَعُول) في القرآن لها دلالات متنوعة تركنا ذكرها لعدم وجود متّسع في إيرادها.

التوصيف باسم التفضيل في التعبير القرآني

يأتي التوصيف بصيغة...(اسم التفضيل)؛ وذلك عندما يُراد التفضل أو التفاوت في الوصف عموماً إذْ يؤتى بهذه الصيغة التي تدلّ على الزيادة في أصل الفعل في الأكثر، ودلالة اسم التفضيل دلالة ثبوت لا حدوث، ولايخلو المفضول من مشاركة المفضل في المعنى في الأغلب نحو القول: (خالد أفضل من أحمد) فأنّ في كليهما فضلاً، غير أنّ (خالداً) يزيد فضله على فضل (أحمد).. والذي نريده في كلامنا هذا هو: كيف تصرّف التعبير القرآني بالأوصاف الواردة على صيغة (اسم التفضيل) وما دلالتها في السياق القرآني؟

الملحوظ في التعبير القرآني أنّه يصف بهذه الصيغة على صورتين:

الصورة الأولى: وهي ورود الوصف معرّفاً بـ (ال) مجرداً من المفضول أو المفضّل عليه، ولم تذكر معه (من) التفضيلية. وفي هذه الحالة تستلزم ان يكون الموصوف بهذه الصورة في أعلى درجات المفاضلة، ولهذه الصورة شواهد كثيرة في القرآن الكريم

ألمع إلى بعضها منه ما جاء في قوله تعالى: ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**)) سورة الأعلى/ ١-٢، ونظيره ما جاء في سورة الليل/ ٢٠/ ٢١.

والذي يلحظ في هذه الآية الكريمة أنّ لفظة (الأَعلى) التي تقتضي وجود ربّ آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه. إذن فدلالة الوصف (الأعلى) في الآية المتقدمة لاتعني أنّ هناك ربّاً عالياً دونه، وأنمّا هو إطلاق العلو إلى مداه، دون ملحظ من المفاضلة بين أعلى وعالٍ[٢١] ونظير ما تَقدمّ ما جاء في قوله تعالى: ((**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**...)) سورة العلق/٣-٤. فملحظ الوصف في هذه الآية الكريمة هو (الأكرم) لم يأتِ به التعبير القرآني للمفاضلة أو للتفاوت بين (أكرم وكريم)، وأنّما جيء به لإفادة الإطلاق إلى أقصى المدى. ونظيره قوله تعالى: ((**ولله المثل الأعلى**)) سورة النحل ٦٠. فـ (الأعلى) وصف (للمثل) وهو الوصف العجيب، ولم يُؤتَ بهذا الوصف على سبيل المفاضلة بين (مثل عالٍ ومثل أعلى) وإنَّما للدلالة على العلوّ مطلقاً إذ له الصفة العجيبة الشأن، وسائر صفات الكمال التي ليس لغيره ما يدانيها... ومثيله قوله تعالى: ((**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**...)) سورة

---

[٢١] ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ٢/١٢١

طه/٨. فالقرآن وصف أسماء الله تعالى بـ (الحسنى) وهي صيغة لاتدلُّ على حدّ أو قيد مفاضلة وذلك؛ لأنّ الأسماء الحُسْنَى دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسنى. ونظيره قوله تعالى: ((**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**...)) سورة النازعات/٣٤. وقوله تعالى: ((**وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى**...)) سورة الأعلى/١١-١٢. فقد جاء القرآن بلفظة (الكبرى) وصفاً لـ (الطّامة) ووصفاً لـ (النار) فالتعبير القرآني كما نلحظه أورد الوصف على هذه الصياغة أي: (فُعْلَى) للدلالة على أنّ الطامة أو الداهية تعلو الدواهي إلى ما لا نهاية أي: بغير حدّ ملحوظ، وأنّ هذه النار التي يدخلها الكافر المبالغ في الشقاوة لا تدانيها نار فهي بالغة المنتهى تُفيد الإطلاق...

والمستخلص: أنّ الوصف إذا جاء على صيغتي (الأفعل) و (الفُعْلَى) وأُطلِقَ من قيد المفضول ولم تذكر معه (من) التفضيلية، خرج كما هو معتقد عن دلالة المفاضلة وخصوصية القيد، وأفاد الإطلاق غير المحدّد الصورة الثانية: وهي التي يرد فيها الوصف مضافاً إلى معرفة، دالاً على المفاضلة والتفاوت وإنّما تتعيّن المفاضلة بذكر المفضول، ولم ألحظ في القرآن إلا شاهداً واحداً يمثّل هذه الصيغة التعبيرية في التوصيف وهو ما جاء في قوله

تعالى: ((فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ..)) المؤمنون: ١٤. وقد كان لأصحاب النظر القرآني وقفة عند التوصيف بـ ((أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ..)) وعن دلالته وفي الأخصّ عندما يكون هذا التوصيف لله سبحانه، يرى أحدُ المفسرين أنّ قوله تعالى: (أحسن الخالقين) فيه دلالة على أنّ الإنسان قد يخلق على الحقيقة؛ لأنّهُ لو لم يوصف بخالق إلاّ الله لما كان لقوله ((أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ..)) معنى.[٢٢] وقد فَصّل صاحب المفردات في غريب القرآن القول في هذه الصيغة التعبيرية في التوصيف قائلا: أن قوله: ((أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ..)): يدل على أنّهُ يصحّ أنْ يُوصف غيره بالنحلق؛ لأنّ معناه أحسن المقدرين أو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أنّ غير الله يبدع فكأنّهُ قيل.. فالله أحسنهم إيجاداً على ما يعتقدون.[٢٣] ويتبدّى للنظر أنّ التعبير القرآني قد جاء بهذا التّوصيف على هذه الصياغة اللغوية، للتدليل على أنّ الله سبحانه وتعالى هو أحسن الصانعين جميعاً صُنْعاً فليس هناك من مُبدعٍ أو صانع من الخلق يدانيه أو يضاهيه في خلقه وتقديره، فالله تعالى هو الخالق الذي لا يفضله أحد من

---

[٢٢] ينظر: تفسير الطوسي ٧/٣٥٤

[٢٣] مفردات ألفاظ القرآن (خلق).

ناس وحاش لله أن يفضله أحد [٢٤]. ومن هذا فإذا قلنا على هذه الصياغة: هذا محمد أفضل الرجال، فقد وصفنا (محمـداً) بقصد تفضيله على جميع الرجال أي: هو الرجل الذي لا أفضل منه!!

(الزّعم) بين الدّلالة المعجمية وَدلالة الاستعمال القرآني

إنّ ما يسعى إليه المتكلم أو الكاتب هو الإفصاح أو التعبير عمّا في نفسهما من أفكار وآراء وهواجس... ولكن مـن الضـروري أيضاً أن يعرف المتكلم أو الكاتب دلالة اللفظة المستعملة وإيحاءها في ذهن المتلقي ليكون تعبيره فصيحاً مبيناً..

وإذا ما أشكل على الإنسان شيء في فهم هذه اللفظة أو تلـك فإنّه يجد حلاً لاشكاله في معاجم اللغة إذ هـي كفيلـة بتوضـيح الألفاظ وتجلية معانيها..

ولفظة (الزّعم): من الألفاظ التي كثيراً ما نرددها على الألسـنة. ويبدو أنَّ لهذه اللفظة معاني ومفاهيم معجمية متعّددة؛ منهـا: إنَّ

---

(٢٤) ينظر: النعت في التركيب القرآني (رسالة دكتوراه مخطوطة للدكتور فاخر الياسري. ص٢٦٦

(الزَّعْم) من (زَعَمْ) (يَزْعُمُ) بمعنى: ظنَ. وذُكِرَ وأكثر ما يكون "الزَّعُم" فيما يُشكُّ فيه ولا يتحقَّقُ [٢٥]

وقال بعضهم: هو كناية عن الكذب.[٢٦] وقيل أكثر ما يستعمل (الزَّعْم) في ما كان باطلاً أو فيه ارتياب[٢٧] ولذلك قيل الزَّعْم: الظن، وقيل: الكذب من عادة العرب أنّ من قال كلاماً وكان عندهم كاذباً قالوا: زعم فلانُ.[٢٨] وبذا نرى أنَّ (الزَّعْم): القول الحق والباطل والكذب ضد وأكثر ما يقال في ما يُشكّ فيه...

ويقال: زَعَم على القوم زعامة: تأمّر فهو زَعيم، وزَعَمَ به (يزعم) (بفتح العين وضمها) زعماً وزعامةً: كفل به فهو زَعِيم به أي: كفيل ويستعمل (زَعَم) بمعنى (قَال) مجرّداً عن الكذب.

وقيل هو من المجاز يأتي بمعنى (طمع) يقال: زعم فلان في غير مزعم أي: طَمَع في غير مطمع. أمّا استعماله في التنزيل العزيز فقد جاء في ذمّ القائلين به؛ لأنّه كما يقول الرّاغب في مفرداته القرآنية: حكاية قول يكون مظنّة لكذب،[٢٩] ولهذا جاء في القرآن الكريم في كل موضع ذم القائلون به وبذا فقد ورد (الزَّعم)

---

[٢٥] المصباح المنير للفيومي ١/ ٢٥٣(زَعم)
[٢٦] المصدر السابق
[٢٧] المصدر السابق
[٢٨] الكليات للكفوي القسم ٢/٩٠٤
[٢٩] ينظر :مفردات غريب القرآن (زعَمَ)

على صيغة الفعل الماضي المسند إلى (الذين كفروا): للتدليل على بطلان قولهم كما في قوله تعالى: ((زعم الذين كفروا أنْ لن يبعثوا..)) سورة التغابن/٧. كما ورد (الزعم) على صيغة الفعل الماضي أيضاً ولكنه قد أُسند إلى ضمير يعود على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو محاكاة القرآن على لسان الكافرين الذين نسبوا الزعم إليه كما في قوله تعالى: ((**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً**..)) سورة الإسراء/٩٠-٩٢.

إذن فالفعل (زعم) الذي نسبه الكافرون إلى الرسول الكريم كما حكاه القرآن على لسانهم ورد للتشكيك والارتياب في ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا دليل على تعنتهم وضلالهم. وقد ورد الزعم في القرآن بصيغة الفعل المضارع وهو بمعنى الاعتقاد الباطل كما هو في قوله تعالى: ((**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**...)). سورة القصص/٦٢. فالفعل تزعمون) الوارد في هذه الآية الكريمة التي تصف حال المشركين يوم يناديهم الله تعالى فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من

دوني وزعمتم أنّهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟!! جاء للتدليل على الإعتقاد الباطل الذي كانوا به يوهمون.

ورد (الزّعم) في الاستعمال القرآني بالصيغة الاسمية للتدليل على بطلان قول المشركين وتسفيه اعتقادهم كما هو ملحوظ في قوله تعالى: ((**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا**..)) سورة الأنعام/ ١٣٦. فالآيةالكريمة تفصح عن كذب المشركين واعتقادهم الزائف بأنّهم جعلوا لله تعالى مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها وهذا -لعمري- ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه، إذن (فالزّعم) المستعمل في تعبير هذه الآية المباركة هو قول من غير دليل ولا شرع وهو محض كذب.

كما جاء (الزّعم) بالصيغة الاسمية لإفادة معنى الضمانة والكفالة وهذا المعنى يؤشره القول القرآني في معرض الحديث عن صواع الملك في قوله تعالى: ((قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ...)) سورة يوسف/ ٧٢، أي بمعنى كفيل وضامن بذلك.

وقد ورد (الزّعم) في القرآن الكريم بالصّيغة الاسمية أيضاً وهو بمعنى الكفالة والضمانة على جهة السخرية والتهكم وهذا ما أفصحت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ((**سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ**..)) سورة القلم/ ٤٠، والمعنى في هذه الآية الكريمة : سلْ (يامحمد) هؤلاء المكابرين أيّهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفي هذا النوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول يرفضها المنطق وتأباها العدالة. وبعد: فإنّ (الزّعم) في الاستعمال القرآني لم يسق إلاّ لمعاني الإرابة والشك والاعتقاد الباطل وكذلك الكفالة أو الضمانة ولم يسق إلى المعاني الأخرى التي نصّت عليها المعاجم اللغوية نحو: الطمع أو التأمر...وهذا يدلّنا على أنّ السياق جدّ مهمّ في تحديد المعنى وإظهاره وهذا ما لمسناهُ من خلال دلالة لفظة (الزّعم) وتحديد معناها من خلال سياقها القرآني الذي تحيا فيه.

مَسلكُ الإفراد والجمع
في الأسلوب القرآني

الأُسلوبُ القرآني هو مادة، الإعجاز في كلام العرب كلّه، إذ إنّ هذا الأُسلوب لما ورد عليهم رأوهُ مألوفاً معروفاً، غير أنّ الذي

أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة تقشعرّ منها الجلود. عندما رأوا طرق نظمه الفريدة. ووجود تراكيبه المذهلة التي يسجد لها كل فكر سجدة طويلة!! وعليه فيمكن أنْ نقف في مقالنا هذا عند بعض استعمالات القرآن (للجمع والإفراد) فنلحظ أنّ الأسلوب القرآني لم يختلف عما كان تستعمله العرب أو تصوغه من الجموع التي وردت عنهم. ولكن الأسلوب القرآني انماز عما كانوا يستعملونهُ لحكمة بلاغية تتجلّى وتستبين في استعمالاته المختلفة في الإفراد والجمع. فنشاهد تعبير القرآن الكريم انّهُ تارة يستعمل المفرد دون جمعه. وتارة أخرى يستعمل الجمع دون مفرده.

فعلى سبيل التّمثيل استعمال لفظ (الماء) مفرداً دون استعمال جمعه: (مياه أو أمواه). فاستعمال مفرده دائماً فيه معنى الجنس...فـ (الماء) رمز للنماء ورمز للنعمة الرّبانية. وهو رمز للطهارة والنظافة. والذي نلحظه في أُسلوب القرآن أنّهُ إذا أراد استعمال لفظة تدلّ على كثرة الماء ووفرته استعمل ألفاظا تدلّ على ذلك منها : الأنهار. والبحار أو نعت (الماء) بوصف يدلّ على الكثرة قال تعالى: ((**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ**...)) سورة القمر/ ١١. ونلحظ أنّ الأُسلوب القرآني قد استعمل لفظة (الآء)

جمعاً دائماً؛ وذلك لأنّها اللفظة الجامعة لكل معاني النعم الربانية. فهو تعبير عن الواقع الذي تكثر فيه النّعم وتتعدد، إذْ لا تنفع نعمة واحدة دون باقي النعم الأخرى؛ وبيان ذلك أنّ الانسان لايستطيع أن يتمتّع بنعمة واحدة دون النعم الأخرى، فلو كان بصيراً على سبيل التمثيل ولم تكن لديه نعمة السمع والذوق والحس والفكر..فان تلك النعمة تبقى ناقصة لايشعر معها بمتعة الحياة !! ونلحظ أيضاً أنّ الأُسلوب القرآني قد استعمل بعض الكلمات مجموعة أيضاً على حقيقة وجودها؛ للدلالة على الكثرة الكاثرة، نحو استعمال لفظة (الزبانية) وهم الذين يدفعون أهل النار إليها، إنّ هذه الكلمة وردت مجموعة في أسلوب القرآن؛ إذ لافائدة من استعمال مفرده هذه الكلمة وعلى وجه الخصوص أنّ هذه الكلمة تفيد معنى من معاني العذاب الشديد ووجود هذه الكثرة في الآخرة.

وهناك مظهر أسلوبي نقف عنده وهو أنّ القرآن في بعض المواضع يؤثر استعمال بعض الكلمات على وجهين تارة يأتي بها بصيغة المفرد؛ لغرض دلالي خاص وأُخرى بصيغة الجمع لحكمة بلاغية خاصة يقتضيها المعنى، وهذا التصرف القرآني الأمثل

لايضاهيه اساليب العرب وتصرفاتهم الكلامية فهو يعطي للكلمات حياة خاصة تعيشها في نفس القاريء أو المستمع.

ومثالنا على ذلك لفظة (السماء) التي جاءت مفردة في موضع ومجموعة في موضع آخر. فاستعمال السماء مفردة يدل على التوحد في الجهة كقوله تعالى: ((**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**...)) سورة الأنعام/٩٩، أي: أنّ كلمة (السماء) المفردة تدلّ على أنّ مصدر نعمة الماء سماوي آلهي وهناك معنى آخر تلفت النظر إليه كلمة (السماء) في حال إفرادها وهو معنى الوصف الشامل الدال على العُلوّ والفوق المُطْلق، إذن فإفراد كلمة (السماء) لايُراد بها سماء معَينة مخصوصة.

وتأمل قوله تعالى: ((**وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ**...)) سورة الأنعام/٣، إذ وردت كلمة (السماء) مجموعة ولهذا التصرف حكمة بلاغية ظاهرة وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية. والمعنى كما هو عند بعض البيانيين.[٣٠] ((وهو الإله المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألود المعبود. فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد))

---

[٣٠] ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القران د. عبد الفتاح لاشين /١٣٩

ويبدو للنظر أيضاً أنَ استعمال كلمة (السموات) في القرآن جمعاً يأتي لمعان عدّة منها: التعظيم والأهمية. والعدد والكثرة والتفضيل والاستقصاء.

أما لفظة (الأرض) فأنّها ترد في القرآن الكريم إلاّ مفردة؛ لعلّة لفظية وهي أنّهم لو جمعوا (أرْضاً) على قياس جمع التكسير لقالوا: (أراض وأرْوض). ولاستثقلوا هذا اللفظ نطقاً؛ لأنَ لفظ (الأراضي) أو (الأرْوض)...لايأذن له السمع إلاّ على كره...ولهذا تفادوا جمعه بألفاظ تدلّ على التعدد كما قال تعالى : ((**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**...)) سورة الطلاق/ ١٢. ولم يقل: (سبع أرضين). أمّا العلّة المعنوية فإنَ الأرض هي دار الدنيا فضلاً عن الآخرة وهذا كما يدخل الانسان أصبعه في اليمّ على حدّ قول بعض القرآنيين، والله تعالى لم يذكر الدنيا الا محقّراً شأنها ومقللا لها..

والملحوظ أيضاً في الأُسلوب القرآني أنَ (سُبُل الباطل) فيه مجموعة و (سبيل الحق) يأتي مفرداً كما في قوله تعالى: ((**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**...)) سورة الأنعام /١٥٣، فطريق الحقّ قد أُفرد في تعبير القرآن

لغرض دلالي وهو أنّ طريق الحقّ واحد ومردّه إلى انه الملك الحق. بينما طرق الباطل جاءت مجموعة: لأنّها متعددة ومتشعبة. فإنّها لاترجع إلى شيء موجود. ولا غاية لها يوصل اليها . بينما طريق الحق. وهو طريق واضح منير موصول إلى مقصود !!

وهكذا فنحن نلمس هذا التصرف القرآني الذي يُنبيء عن أن القرآن الكريم نسيج وحده في هذا التصرف البارع الأخّاذ الذي يمثل ضربا من ضروب البلاغة القرآنية التي ينبغي أن ينزّه الإنسان نظره. ويمتع قلبه وعقله بالسماع إليها أو قراءتها!!!

مقصد الدّنيا والحياة الدّنيا

في التعبير القرآني

(الدّنيا) في المعجم العربي على زنة ((فُعْلى)) من (دنا) منه، وإليه: وله (يدنو) دنوا: ودناوةً بمعنى: قرُب و(الدناوة): القرابة أو القرابه و (الدنى): القريب غير مهموز...ولفظة (الدّنيا) وردت في القرآن الكريم في نحو مئة وخمس عشرة آية: منها سبع وستون آيةَ جاءت فيها لفظة (الدّنيا) نعتا للفظة (الحياة) في تعبير (الحياة الدنيا)؛ وفي أربع وأربعين آية وردت لفظة (الدّنيا) اسم

علماً قائماً بنفسه؛ كما وردت أيضاً لفظة (الدنيا) نعتاً للسماء في ثلاث آيات في تعبير ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ في سورة الصافات/٦ وفصلت/١٢ . والملك/٥. كما وردت في موضع واحد في سورة الانفال/ ٤٢ نعتاً للفظة (العدوة) في تعبير((بالْعُدْوَةِ الدُّنْيا)) والذي يتبدّى للنظر أن القرآن الكريم قد فرق دلالياً بين تعبير (الدّنيا) حينما تأتي مجرّدة علماً قائماً بنفسه أي: عندما يصبح لفظ (الدنيا) نعتاً غالباً مستغنياً عن ذكر موصوفه مضارعا للأسماء ومنزلاً منزلتها؛ ولهذا سُمّيت هذه الأسماء بالنعوت الغالبة لغلبة استعمالها أسماء. وبين تعبير (الحياة الدنيا) أي: عندما تأتي لفظة (الدنيا) وصفاً (للحياة) ونلحظ أيضاً أنّ تعبير القرآن عندما يأتي بلفظ (الآخرة) إذْ تأتي لفظة (الدّنيا) في تعبير القرآن وحدها عندما يكون الحديث مقصوراً عليها ليس غير....، من دون أن يتعرّض هذا الحديث للإنسان وما يتعلق بعيشه وعمله وصفاته وخصائصه في هذه الحياة، وإنّما كان الحديث في القرآن كما ألمعت محصوراً على (الدنيا) بهذه الصياغة والاستعمال علماً غالباً على هذه الحياة التي نعيش فيها قبل موتنا والآيات القرآنية تعزز هذا الملحظ أو المقصد مثال ما جاء في قوله تعالى: ((**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...**)) سورة الاحزاب/٥٧، وقوله تعالى:

((**مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ..**)) سورة أل عمران/١٥٢. وقوله تعالى: ((**مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..**)) سورة النساء/١٣٤.. ونسرّح النظر في مواضع أخرى من القرآن الكريم فنلحظ أنّ لفظة (الدنيا) قد جاءت وصفاً (للحياة)؛ وذلك في تعبير (الحياة الدنيا) ولهذا التعبير أيضاً خصوصيّته ومقصده يختلف عن التعبير المتقدم وهو أنّ تعبير (الحياة الدنيا) القرآني يستوحي منه كون الإنسان قد تعلق بهذه الحياة أيما تعلّق وتشبّث بها أيما تشبث واغتر بها وطغى حتى غرق في آهوانها وشهواتها وملذاتها!! وكان تعبير القرآن يريد ان يقول: إنّ هذا الإنسان المنغمس في الملذات الدنيوية يحسب أنّ (الحياة الدنيا) هي الحياة الأبدية لجهله بالحياة الأخروية التي لم يلتفت إليها! ولو كان يعلم هذا الإنسان المغتر أنّ الدار الآخرة لهي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص لم يؤثر دار الفناء على دار البقاء.!!

فالحياة الدنيا فانية تنقضي سريعاً وتزول ..كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرّقون!!؛ لأنّها حياة حقيرة دنيا، لاحياة عليا، ولم تكن بالحياة الفضلى السامية الحقّة أجل: فهي حياة دنيا لا تزن عند الله

جناح بعوضة، وإنّ الإنسان الذي يغتَر بها فهو هالك هالك لامحالة!!!!والآيات القرآنية تؤكد هذا المعنى وتعزّزه منها ما جاء في قوله تعالى: ((**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ...**)) سورة العنكبوت/٦٤.

مشاهد الآخرة

كما تصوّرها بعض آي سورة الانشقاق

إنَ العرب الأولين قد تلقوا الجمال الفني في القرآن هذا التلقي، فتعمق في إحساسهم وهزَّ نفوسهم فنحن نلحظ أنَّ الصورة القرآنية قد صُنعتْ من الجمل البليغة البارعة وهي صورة جميلة أخّاذة مبهرة بجمالها الفنّي، يقف المرء أمامها شاخصاً مبهوراً بجمال التنسيق..وإنّ هذه الصور تُنتظم بعضها إلى بعض لتؤلّف المشهد القرآني وهو مشهد فيه الصور، وفيه الحركة، وفيه الفكرة فهو مشهد قد بلغ القمة!! ولي في هذا المقام أنْ استعرض (مشاهد الآخرة) كما تصورها بعض آيات سورة (الانشقاق).. الآيات: ((إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)) سورة

الانشقاق/١-٥، السورة الكريمة ابتدأت بذكر بعض مشاهد الآخرة وقد صوّرت الإنقلاب الكوني عند قيام الساعة، فالمشهد الذي تعرضه السورة الكريمة هو أنّ السماء قد انشقّت إذ نلحظ أنّ فعل الانشقاق قد اتصفت به السماء اتصافاً ملحوظاً ممّا يعطي للسماء الفاعلية والحيوية والحركة والطواعية الملحوظة التي تُؤذن بخراب الكون وبذا يكون فعل تصدع السماء وانشقاقها تصويراً للهول العظيم الذي يفزع له الخيال والمعنى.. فإنّ السماء المنشقة لاتصل إلى منتهى فعلها هذا فحسب وإنّما أذنت لربّها أي: استمعت، وأصاخت، وانقادت له، لتسلّمه أمرها وزمامها! وقد حقّ أنْ تطيع وتسمع وتنال إذنهُ على انشقاقها وتصدّعها! وكذلك الأرض سوّيت بعد إزالة جبالها، وآكامها، فأصبحت مستوية-ليس فيها عوج ولا أمت- إنّها مستوية لابناء فيها، ولا وهاد، ولاجبال..!! وقد لفظت وألقت كلّ ما في بطنها من الكنوز والموتى والمعادن وغيرها أنّها تلقى كل شيء كما تُلقى الحامل ما في بطنها من الحمل! وهذا يؤذن بشدة الهول وفظاعته..

إذن، فالموقف هنا قد تصاعد..فالأرض تُسلّم قيادتها إلى ربها ثم تستأذنه على تخليها عن كل شيء حملته، فكأنّ هذا المشهد

الذي صوره القرآن تصويراً حياً وناطقاً يريد أنْ يبيّن لنا شيئا مهماً وهو أنّ الأرض حان وقت تسلّمها الأمانة التي حملتها طويلاً. وحان أنْ تنفض منها نفسها أخيراً!! فهذا لعمري مشهد صيغ في هذه الصورة الحسية العجيبة البارعة مالا يحيط بها الخيال!! فهو مشهد قد أفتن بإخراجه افتناناً رائعاً!!. ونلحظ أنّ جواب (إذا) قد حُذف من بنية قوله تعالى: ((إذا السّماءُ انْشقّتْ)) ومن بنية قوله تعالى: ((وإذا الأرْضُ مُدّتْ)) ممّا يضيف هذا التصرف في الحذف ثراء دلالياً ويعمق المعنى.. اذن فحذف الجواب في بنية هاتين الآيتين الكريمتين ليكون أبلغ في التهويل أي حدث كل ما تقدم لقي الإنسان من الشدائد والأهوال..

الملاحظ الدلالية

لبعض ألفاظ الجهاد في القرآن الكريم

استعمل القرآن الكريم ألفاظاً استعمالاً خاصاً تلك التي أصبحت تدلّ على معانٍ استلزمتها الحياة التي فتحت العرب صدرها اليها، إذ كانوا لايعرفونها قبل الإسلام على النحو الذي عرفها فيما بعد، تلك الألفاظ التي خرجت عن دلالتها الأولى إلى الدلالة على معان

اصطلاحية خاصة وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم قد اشترع حياة جديدة تخالف في جلِّ مظاهر الحياة العربية قبل الاسلام، حياة ذات أنماط خاصة ونظم ثابتة. وفي الحق أنّ النـاظر إلـى مـدلولات الألفاظ اللّغوية في حياة ما قبل الإسلام يلحظ دون أدنـى شـك أنّ منظورها يختلف في الحياة الاسلامية، وهذا يشير في حقيقته إلى أنّ هناك ألفاظاً ذات معانٍ مخصوصة قد كونّها القرآن الكريم فهي معانٍ جديدة إنّما عُرفتْ مع القرآن نتيجة لاستعمالها في مواقعهـا وسياقاتها الجديدة، وقد اخترتُ في هذا المقـال بعـض الألفـاظ القرآنية اليسيرة التي تتّصل اتصالاً مباشـراً بالجهـاد لاجـتلاء مضامينها ومدلولاتها القرآنية أذكرُ طرفاً منها: أولاً: (الجهاد فـي سبيل الله).. لفظة (الجهاد) في اللغة مأخوذة من الفعل (جهد) التي تعني (الجد) ويرى أهل اللغة ان (الجَهْد) أو (الجُهْد) (بفتح الجـيم أو بضمها) يـدلّ علـى المشـقّة أو الطاقـة، أو هـو بلوغـك الأمر...وفي القرآن الكريم ورد الفعل (جاهد) وكذلك (تُجاهـدُون) وأيضاً (الجهاد) و(المجاهدون) وقد حملت هذه الألفاظ على معنى بذل كل ما في الوسع والطاقة من فعلٍ أو قول أو مواجهة الأعداء ومقاتلتهم لإعلاء كلمة الله العليا من ذلك ما جاء في قوله تعـالى: ((**تُؤمِنُون باللهِ ورَسُولهِ وَتُجاهِدُونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكم وانفسِكُمْ**..)) سورة

الصف/١١. وقوله تعالى: ((**وجاهِدوا في اللهِ حقّ جهادِه..**)) سورة الحج/٧٨. ويتبين لنا أنّ لفظة (الجهاد) الواردة في القول القرآني كلمة شاملة تعني كل ما يستطيع المسلم أنْ يبذله من جهد في سبيل الله..فالجهاد في التفكير الاسلامي هو بذل الجهد في مدافعة الشّر واستجلاب الخير، إذن فهو لم يكن محصوراً على حمل السيف بل يتعدى ذلك إلى حمل القلم وبذل المال وإعلان الكلمة الطيبة الحرّة الكريمة..وقد جعل الإسلام للمجاهد أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة فهو في الدنيا عزيز منتصر، وفي الأخرة في جنّات إقامة. وأمّا الذي يُقتل في سبيل الله فهو شهيد ذو منزلة عالية عند رب العزة...إذنْ فلفظة (الجهاد) تشكل مفهوماً قرآنياً جديداً بعد ان خصصت بعبارة (في سبيل الله) التي تعني أنّ الجهاد في الاسلام لايكون إلاّ لنصرة دين الله تعالى..

ثانياً: (النصر) من معاني هذه اللفظة اللغوية التي عرفها العرب هي: (العطاء) و(المطر) و(إغاثة المظلوم) و(العون والمساعدة). أما مدلول هذه اللفظ القرآني فستلحظ أنّه محصور بالله عزّ وجلّ؛ لأنّ العون والمساعدة والعطاء في القرآن هو من الله سبحانه؛ لذا فالنصر لاينزل ولا يقيم إلا عند أهله المستحقين

له الذين ينصرون الله الحق ويقاتلون في سبيل اعلاء كلمته العليا وهذا ما يؤيده قوله تعالى: ((**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**..)) سورة آل عمران/ ١٢٣.وقوله تعالى: ((**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**..)) سورة آل عمران/١٢٦، ويظهر لنا من خلال الآيات القرآنية أنَ لفظة (النصر) تعني: غلبة الحق والخير على وجه الدوام؛ لأنَ الله تعالى ينصر أصحاب الحقَ والخير نصرا مبيناً ولاينصر سواهم بل يخذلهم خذلاً؛ وبهذا تكون لفظة (النصر) مصطلحاً قرآنياً إسلامياً له دلالته ومضمونه الخاص.

ثالثاً: (الربط على القلب): الربط في اللغة بمعنى شدّ الشيء شداً. والربط على القلب: شعور يحسّ به كل فرد في مواقف الضيق والشدّة واحتدام الأمر فكم من موقف شديد عصيب، وقف عنده الفرد مرتجف الجنان مضطرباً خائفاً وجلاً ومُرتعداً.. وها أنت ذا تلحظ فجأةً أنّه يستردّ عزيمته وقوتهُ ويملك جنانهُ، ويشعر بوجوده وكيانه ويحس بثباته ويقينه...إذن فقلوب المؤمنين الصادقين واثقة ومطمئنة دائماً فهي متيقنَة وصابرة عند ملاقاة الأعداء وهذا الملحظ تؤكده الآيات القرآنية الكريمة منها ما جاء في قوله تعالى: ((**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ**

وَالأرْض..)) سورة الكهف/١٤، وقوله تعالى: ((**وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ..**)) سورة الأنفال/١١، ومن ذلك ننتهي إلى القول إنّ تعبير (الربط على القلب) تعبير قرآني عجيب وأخاذ يرسم صورة حيّة موحية.

دَلالة صيغة
الفعل (يُدافِعُ) كما تبدو في السّياق القرآني

القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر قد حملت آياته البينات أسراراً عجباً. هذه الأسرار هي نوع من إعجاز القرآن الذي بقي سراً محجوباً عن الأنظار!! فهذا القرآن العزيز تلتقي به العقول فتجد زادها ومرعاها، وتظل هذه العقول دائمة التطلع إليه، ناظرة فيه، آخذة منه؛ لذا كان وكْدي هُنا، هو أن أُبرّز واحدة من المسائل التي تتعلق بأُسلوب القرآن البياني، وهي استجلاء دلالة صيغة الفعل (يدافع) الذي سبق في قوله تعالى: ((**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ..**))سورة الحج/٨٣، فالآية الكريمة تشير إلى محاربة الصادين عن سبيل الله وذلك لتأمين البيت الحرام لقصاده حتى يتمكنوا من أداء عبادتهم في حرية آمنة مما يجب على المؤمنين نصب نار الحرب لأولئك الصادين المانعين..حتى جاءت البشرية لأولئك المؤمنين ليشدّوا أزرهم

ويقوَوا عزيمتهم..وبعدُ فإننا نلحظ في هذه الآية الكريمة التعبير بالفعل المضارع (يدافع) بصورة أو بصيغة المفاعلة لإشعار المؤمنين بقوة عدَوهم؛ لأنّه ذو عدة وعدد، وبذا لاينبغي مع ذلك الهوان والتواكل واهمال الاستعداد بالعدة والعدد أيضاً..والملحوظ أيضاً أنّ المدافعة وردت بالصيغةَ المضارعة الدالة على التجدد والاستمرار وقد أُسندت إلى الله تعالى (إنّ الله يدافع) وهذا يشكل في حقيقته – كما ألمعت – بشارة للمؤمنين بشارة بالنصر والظفر باعدائهم الكفار وكفَ كيدهم ليقوى جنانهم ولتشتدَ عزيمتهم؛ لأنَ الله تعالى هو الغالب القهّار وهو الناصر الذي يتولّى الدفاع عن أوليائه المؤمنين وهو الذي يقهر بهم أعداءه من كل خوّان كفور أي: كثُرَ فيه فعل الخيانة والكفر..إذن فصورة الفعل الواردة في تعبير الآية الكريمة الدالة على المفاعلة لم تكن في الواقع الخارجي على بابها من إفادة المشاركة في أصل الواقع..وتعالى الله فوق عباده بأن تقف قوة في الأرض أو في السماء أمام قوته وجبروته!! ولكن هذه المفاعلة بصيغتها اللغوية التي وردت في سياق الآية لحكمة قد سبق بيانها وألمع إليها هنا؛ وهي أن يدفع الله عن المؤمنين غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم على أعدائه وأعدائهم.. وعليه فقول بعض المفسرين: إنّ (يدافع)

بمعنى (دفع) ودَفعَ معناه: نفي المشاركة الواقعيــة فــي الخــارج وليس معناه استواء الفعلين في تأدية معنى واحــد؛ لأنَّ القــرآن الكريم لايستعمل كلمة بصيغة ويريد منها دلالة صيغة أخرى مــن غير أن يقصد إلى معنى الصيغة المستعملة[٣١] أمّا قراءة (إنَّ الله يدفع) فهي تشير إلى تمحيص البشارة من أول وهلــة للمــؤمنين الذين أُوذوا ولم يتمكّنوا من رد الاعتداء علانيةً لتسكن قلوبهم إلى وعد اللهِ تعالى.

الفعل قضى:
بين الدّلالة المعجمّية ودلالة السّياق القرآني

إنَّ المعنى ظاهرة بالغة الدقة شديدة التعقيد، لايمكن معالجتها من زاوية واحدة، فالدلالة المعجمية للمفردة الواحــدة لاتمثــل إلا جانباً واحداً محدوداً من دلالتها، فهي لاتحدد لنــا تحديــداً دقيقــاً واضحاً كيف يجري استعمال الكلمة في التركيب اللغوي أو الجملة استعمالاً صائباً وصحيحاً معبّراً. إذ إنَّ الدلالة المعجميــة تقتصــر عادة على ما تمثله المفردة في العالم الخارجي، ويؤدي الســياق

---

(٣١) ينظر: القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسّرين لمحمد الصادق عرجون/ ٢٩٣

النغوي دورا مهما في تقرير معنى المفردة وتحديده... ويتبدى للنظر أنّ الفعل (قضى)تكمن دلالته المعجمية بـ (الحكم والفصل) عندما يقال: قضيت بين الخصمين. ومن دلالاته المعجمية أيضاً (الأداء) كأداء الحج والدين. ويقال: قضى فلان وطره:إذا بلغه ونالهُ..[٣٢] ولكن هذا الفعل حينما يتشكل وينتظم في التركيب القرآني ليعطي دلالات متلونة متنوعة متعددة ينبئ عنها السياق القرآني الذي ترد فيه.

فمن دلالاته القرآنية أنّهُ ورد بمعنى (أمر) قال تعالى: ((**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**..)) سورة الإسراء/٢٣، ويرد الفعل (قضى) في القرآن الكريم بمعنى (أخبر) جاء في قوله تعالى: ((**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً**..)) سورة الإسراء/٤، ومن دلالاته أنّهُ بمعنى (فرغ) ما ورد في قوله تعالى: ((**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ**...)) سورة البقرة/٢٠٠، يعني: أن فرغتم من أمر المناسك.

وكقوله تعالى: ((**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ**..)) سورة النساء/١٠٣. يعني: فزعتم ومن معانيه القرآنية أيضاً أنّهُ بمعنى (فعل) كما

---

(٣٢) ينظر على سبيل التمثيل المعاجم اللغوية: المصباح المنير ٥٠٧/٢ (قضى) وكذلك مختار الصحاح للرازي، والقاموس المحيط للفيروزأبادي (قضى)

ورد في قوله تعالى: ((**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ**..))سورة طه/٧٢، يعني: افعل في أمرنا ما أنت فاعل. وقوله تعالى: ((**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً**...)) سورة الانفال/٤٤، أي ليفعل الله أمراً كان قضاه في علمه أنْ يفعله ويأتي أيضاً بمعنى (النزول) كما هو وارد في قوله تعالى: ((**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ**..)) سورة سبأ/١٤، بمعنى: أنزلنا به الموت وقوله تعالى: ((**فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**..)) سورة القصص/١٥، يعني: فأُنزِل به الموت.

ويأتي بمعنى (وجبَ) كما هو في قوله تعالى: ((**وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**..)) سورة هود/٤٤، ويعني: وجب العذاب فوقع بقوم نوح(ع).

وقد ورد في السياق القرآني بمعنى (أتم) وذلك في قوله تعالى: ((**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ**..)) سورة القصص/٢٩، يعني: فلما أتم موسى شرطه. وقوله تعالى: ((**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ**..)) سورة الاحزاب/ ٢٣، بمعنى: أتم.

وقد ورد هذا الفعل بمعنى (فصل) كما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ((وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ..)) سورة الزمر/٦٩، يعني فصل بينهم بالحق، وقوله تعالى: ((**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**..)) سورة يونس/٤٧، يعني: فصل.

وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ((**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**..)) سورة يونس/٩٣، يعني: يفصل بينهم. وقد ورد الفعل (قضى) في السياق القرآني بمعنى: خلق وذلك في قوله تعالى: ((**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**..)) سورة فصلت/ ١٢، أي فخلقهن سبع سموات.

نستخلص ممّا تقدّم أنّ الفعل (قضى) في القرآن متعدد الدلالات متنوع المقاصد بحسب السياقات القرآنية التي يساق فيها. أمّا دلالته المعجمية فهي دلالة محدودة إذا ما قيس بدلالته القرآنية ممّا يدعو هذا إلى القول: إنّ الألفاظ القرآنية بطريقة استعمالها، ووجه تركيبها كأنّها فوق اللغة !!!

دَلالة (لعلّ) في الأسلوب القرآني

أشار النّحويون واللُّغويون إلى جملة من المعاني التي تؤدّيها (لعلّ) منها الترّجي والاستفهام، والتعليل..وربّما تكون هذه المعاني أو الدلالات مستمدة من أمثلة ومنتزعة من تصور ما، لذا، فلا بدّ من الوقوف على بعض دلالاتها القرآنية قد تكون مباينة عمّا ذكرها اللغويون؛ وذلك لأنّ للقرآن اسلوبه وبلاغته وإيحاءه ومعانيه ثم علينا أنْ نُفرّق بين مستوى الكلام البشري والكلام

الإلهي المقدس وعليه فإذا جاز أن يحمل الكلام البشري نظراً لطبيعة المتكلم من المعاني ما لا يجوز أن ترد في القرآن.. فمن معاني (لعلّ) الترجي وهذه الدالة أشار إليها أصحاب النظر اللغوي والنحوي بقولهم: إنّ (لعلّ) طلب المحبوب المستقرب حصوله كقولك: (لعلّ الله يرحمني) وفي الأسلوب القرآني يجب أن يُفسر معاني (الرجاء) في ضوء الاعتبارات الدينية المتفق عليها؛ وذلك لما لكلام الله تعالى من خصائص ودلائل وإشارات..وهنا نرتضي قول سيبويه: إنّ (الرجاء والاشفاق) يتعلق بالمخاطبين وينصرف إليهم. ولذلك حمل بعض المفسرين (لعلّ) الرجائية مسندة إلى المخاطبين منصرفة إليهم؛وذلك في اسلوب مجازي أي: على معنى لتكون حالكم حال من يُرجى منه؛ لأنّ الرجاء لا يجوز على الله تعالى وأنّما يتعلّق بالمخاطبين كما أسلفت. فمن معاني هذا النمط ما جاء في قوله تعالى: ((**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**..)) سورة البقرة/١٨٧،وننظر أيضاً سورة الأنعام/ ١٥٣، وكذلك سورة الأعراف/١٦٤ ومعنى (لعلّ) في هذه الآية الكريمة: لتكون حالهم حال من يرجى منه خوف الله سبحانه وتعالى وقوله تعالى: ((**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**..)) سورة الأعراف/٩٤، والمعنى: ليكون حالهم عند

المأساة حال من يرجى تضرعه وخضوعه وتذلّله لله سبحانه، وقوله تعالى: ((**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون**...)) سورة البقرة/٢١٩، والمعنى: لتكونوا على حالة من يرجى لكم معها التفكر وهو طلب التفكير وقوله تعالى: ((**وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**..)) سورة ابراهيم/٣٧، والمعنى: ليكون حالهم حال من يرجى شكرهم؛ وذلك لما يرون من نعم الله الخارقة للعوائد. وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ((**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**...)) سورة فصلت/ ٢٦، والمعنى: ليكون حالكم حال من يرجى له ان يغلب ويظفر بمراده، وذلك في أنْ لا يميل إلى هذا القرآن ولا يستمع له.

وقد وردت (لعلَّ) في الأسلوب القرآني لإفادة معْنى (الإشفاق) وهذا ما ألمع إليه أصحاب النظر النحوي واللغوي ويلزم كما أشرت أن نفسر معنى (الإشفاق) تفسيراً يتناسب وقدسية النص القرآني.

جاء في قوله تعالى: ((**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**...)) سورة الكهف/٦، فـ (لعلَّ) في هذه الآية الكريمة جاءت لإفادة معنى (الأشفاق)؛ ولذا يكون المعنى: أشفق على نفسك أنْ تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك، وليس

المعنى إشفاق الله سبحانه على رسوله أن يقتل نفسه حسرةً؛ لأنّ الله تعالى يعلم أنّ الرسول(ص) لن يقتل نفسه حسرة...كما لفت النظر بعض النحاة إلى أنّ (لعلّ) يمكن أن ترد لاداء معنى التعليل أو السببيةَ وقد حملوا عليه قوله تعالى: ((**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**..)) سورة طه/٤٤. كما أُثبت بعض النحويين أنّ (لعلّ) تؤدي معنى الاستفهام واستشهدوا بقوله تعالى: ((**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً**..)) سورة الطلاق/١،وقوله تعالى: ((**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**..)) سورة عبس/٣.

وهناك دلالات (لعلّ) تستبان من خلال السياق القرآني وهذه المعاني أو الدلالات لم ينصَّ عليها أصحاب النّظر النحوي ومن تلك الدّلالات:-

أ/ التمني: وهذه الدلالة تلحظ في قوله تعالى: ((لعلّي أعْملُ صالحاً فيما تركْت..)) سورة المؤمنون/١٠٠، والمعنى كما لفت النظر إليه بعض أصحاب التفسير القرآني ما أتمنّى أن يرجع إلى أهله وعشيرته لا إلى جمع الدنيا ويقضي الشهوات. ولكن تمنى أن يرجع ليعمل بطاعة الله تعالى.. فـ (لعلّ) في سياق هذه الآية الكريمة لإفادة معنى التّمني. وقد وردت (لعلَّ) أيضاً لاداء المعنى نفسه وهو (التمني) كما في قوله تعالى: ((**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ**

لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ)) سورة غافر/٣٦-٣٧.
و(لعلَّ) في الآية الكريمة كما أشرت للتمني وهو طلب للممكن العسير، والآية حكاية عن فرعون..

ب/التحقق: كما وردت (لعلَّ) للدلالة على (التحقق)؛ وذلك كما وردت في قوله تعالى: ((**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا**..)) سورة يوسف/ ٦٢. فقد ورد التعبير في هذه الآية الكريمة باداة التحقق تفاؤلاً لهم بالسلامة كما يرى بعض أصحاب النظر القرآني.

ج/ الإرادة: وقد وردت (لعلَّ) في الأسلوب القرآني: لتؤدي معنى الإرادة كما هو في قوله تعالى: ((**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**..)) سورة البقرة/١٨٥.

فـ (لعلَّ) في تعبير هذه الآية الكريمة بمعنى (الإرادة) أي: أراد أن تشكروا وهذا ما رأه المفسر الزمخشري [٣٣] ما قدمناه إلماعة في دلالة (لعلَّ) في الأسلوب القرآني الذي بلغ الذُّروة في الفصاحة والبلاغة!!!

---

(٣٣) ينظر: تفسير الكشاف ١-٢٠٤.

القيمة المعنوية لظاهرة الاستغناء عن الفاعل في البيان القرآني

نقرأ قوله تعالى: ((**صراط الّذينَ أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عَليهم**)) سورة الفاتحة/٧. فنجدُ الفعلَ (أنعمتَ) قد أسند الى الفاعل وبُني الفعل للمجهول في قوله تعالى: ((**المغضوب عليهم**)). فهذا مسلك القرآن في التعبير بأن يسند النعم له تعالى. ويستغني عن الفاعل في مقابلة ذلك، إذن فلا بد من قيمة معنوية في ثبات الفاعل والاستغناء عنهُ.

فالملحوظ في هذا النص القرآني قد أسندت النعمة الى اسمه سبحانه وتعالى إذْ هي في نظر علماء البيان فضل ورحمة. وصفة كمال وجمال.[٣٤] فمن الأولى والأسنى أن تنسب اليه سبحانه. وقد حذف الفاعل أو استغنى عنه في مقابل ذلك في قوله تعالى: ((المَغْضُوب عليْهِمْ)) فقد بُني الفعل للمجهول؛ لانَّ صفة الغضب -كما يرى بعض أصحاب النظر القرآني- صفة بعيدةَ عن الكمال والجمال.[٣٥] ولذلك لم تُضف إليه أو تسند. وإنّما أُسند إليه أكمل الأمرين وتلك هي طريقة القرآن في التعبير. وتطالعنا ظاهرة

---

[٣٤] ابن القيم وحسنه البلاغي في تفسير القران ٩٧.

[٣٥] المصدر السابق.

الاستغناء عن الفاعل في البيان القرآني عند الحديث عن القيامة وبيان أهوالها العظيمة وأحداثها الجسيمة، إذ يطّرد مثل هذا في ذلك الموقف العصيب العنيف، إذ تأتي الأفعال في الغالب مبنّية للمجهول؛ لإبراز الأمر الذي هو أهم وأعنى في تعبير آي القرآن...فأذكر بعضها: ما جاء في قوله تعالى: ((**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**..)) سورة الحاقة/١٣-١٤، وقوله تعالى: ((**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**...)) سورة التكوير/١-٧، ويُستغنى عن الفاعل في البيان القرآني في مشهد يوم الآخرة وذلك عند عرض أحواله وأهواله، حيث الإنقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام، وفي هذا الموقف نلحظ أنّ الأفعال في الغالب تأتي مبنيّة للمعلوم ولكنها مسندة إلى غير فاعلها الأصلي على جهة الإتصاف أو المجاز. أذ في هذا التصرف أبلغ التصوير في أبراز القدرة الإلهية على فعل هذه الأحداث...وهذا ما نتبيّنه من خلال ذكر بعض الآيات الكريمة منها ما جاء في قوله تعالى: ((**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ**..))

سورة الانفطار/١-٢. وقوله تعالى: ((**اقتربت السّاعة وانشقّ القمرُ..**)) سورة القمر/١. وهناك آيات أخرى على هذا المثال.

وتطّرد هذه الظاهرة أيضا في قصة موسى مع الخضر(عليهما السلام) وقد تأدب الخضر بالادب الرباني العالي الرفيع. فقد حكى القرآن عنه ذلك. إذا نسب عيب السفينة الى نفسه وعن إرادته. فقال تعالى: ((**أمّا السّفينةُ فكانَت لِمَساكين يعملون في البحرِ فأردتُ ان أعيبَها..**)) سورة الكهف/٧٩. ولم ينسب هذا العيب إلى الله تعالى مع أنّ الله تعالى هو الذي أمره بذلك وألهمه أن يفعل ذلك! كما قال من بعد: ((**وَمَا فَعَلتُهُ عَن أمري..**)) سورة الكهف/٨٢. أي أن خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار كان بإلهام من الله تعالى، ولكن الخضر (ع) لم ينسب ذلك إلى الله تعالى تنزيها للذات الإلهية وتأدبا منه في الخطاب ولطفا في الحديث. وبعد: فإن ظاهرة الاستغناء عن الفاعل اتخذت أساليب متنوعة في التعبير لكل أسلوب ملحظه الدلالي الخاص... حيث إنّ بناء الفعل للمجهول يدلّل من خلاله التركيز على الحدث بغض النظر عن فاعله أو محدثه. أما إسناد الفعل إلى غير فاعله على سبيل الإضافة أو ما يسمى بالإسناد المجازي. فهذا يدلّل أيضاً على أنّ المسند إليه أكثر فاعلية محققة يستغنى بها عن الفاعل الأصلي.

بلاغة معاني بعض أمثلة الأفعال في القول القرآني

القرآن الكريم حيّر عقول خبيري فن القول وحُذاقه فأبرزوا معالم إعجازه بأسلوب رائع يُعجب به كل دارس وقارىء مدقق في نظمه الذي هو جنس متميز وأسلوب متخصص وقد أهتمّ القرآن ببراعة وحذق بتداول المعاني إذْ أعطى للصيغة التعبيرية أهميّة فائقة قد أوردها واستوعبها إذ سلكها في مسلكه التّعبيري السامي الذي يشع الواناً من الدلالات والإشارات والإيحاءات التي تخلص إلى القلوب فتخشع وإلى العقول فتخضع وإلى النفوس فتهتزّ وتربو وتنبت من كل زوج بهيج!!

ولي في هذه المقالة أن أعرض شيئاً يسيراً لبعض أمثلة الأفعال التي جاءت في أسلوب القرآن لنتدبرها ونقف عند إيحائها ومعانيها البلاغية التي تكتسبها عندما تنتظم وتأتلف في سلك الأُسلوب القرآني. ولنا أنْ نقف عند القول القرآني: ((**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ..)) سورة الأعراف/ ٥٠، في هذه الآية الكريمة نلمح المحاورة بين أهل النار وأهل الجنّة بعد أن استقرّ بكل من الفريقين القرار واطمأنّت به الدار إذْ استغاث أهل النار بأُهْل الجنّة عند نزول عظيم البلاء من شدة الجوع والعطش...فأُجيبوا: أنّ الله

حرّم (الطعام والشراب) على الكافرين، وعليه فالآية الكريمة ترسم لنا مشهداً فنياً بارعاً من مشاهد يوم القيامة العصيبة!! فهي بحق ترسم لنا صورة حية ناطقة للخزي الذي يصيب الكافرين.

والملحوظ في هذه الآية أيضاً أنّ الفعل (نادى) استعمل بالصورة الماضية وكان مقتضى الظاهر أن يرد على الصورة المضارعية (ينادي) بدلاً من الفعل (نادى) ولكن تعبير القرآن عبّر عن الأحداث التي تحدث مستقبلاً بالفعل الماضي (نادى) وهذا الإجراء التعبيري القرآني يمثل قمة المبالغة السامية وقد صوّر القرآن الكريم ما يقع في المستقبل كأنّهُ حدث وحصل بالفعل؛ أي: كأنّ النداء من أصحاب النار قد وقع! وفي هذا التصريف التنبيه إلى أنّهم لاينبغي أن ينكروا البعث فواقعه وحوادثه حاصلة واقعة حقاً وانكاره غير مقبول أبداً...

وإذا كان التعبير عن المضارع بالماضي لتحقق الوقوع كما لمسنا هذا في المسلك القرآني المتقدم يعبّر أيضاً عن الماضي بالمضارع لاستحضار صورته لتكون ماثلة في النفوس وحاضرة في الخيال كما في القول القرآني: ((**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**...)) سورة فاطر/٩، فالآية الكريمة تتحدث عن ظواهر طبيعية حدثت ووقعت فكان

مقتضى ظاهر التعبير القرآني أن يُورد الفعل: (فأثارت) بصورته الماضية كالأفعال التي جاءت بها بعده...ولكن تعبير القرآن جاء بالصيغة الفعلية المضارعية: (فتثير) لقصد استحضار صورة الإثارة وأن تكون حاضرة في الذهن ماثلة في الخيال فيكون ذلك أدعى إلى العظة والاعتبار !! ونظير ما تقدّم ما جاء في القول القرآني: ((**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**...)) سورة البقرة/٨٧. الآية الكريمة تحكي لنا الصورة البشعة التي كانت اليهود تصنعها بالأنبياء. وكان مقتضى ظاهر التعبير أن يُقال: (وفريقاً قتلتم) ولكن تعبير القرآن جاء بالصيغة المضارعية لإستحضار تلك الصورة الأليمة في النفوس تقبيحاً لها وتنفيراً منها. ونقف عند القول القرآني: ((**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**...)) سورة الحجر/٩٤. أي فبلغ ما تؤمر به فالتعبير القرآني استعمل فعل (الصدع) ولم يستعمل فعل (التبليغ)؛ لأنّ الصَدع بالأمر لابدّ له من تأثير كأثر صدْع الزّجاجة والتبليغ قد يصعب حتى لايعدو له تأثير فيكون بمنزلة ما لم يقع والمعنى الجامع بين الصدع والتبليغ هو الإيصال إلاّ أنّ الإيصال الذي له نفاذ تأثير هو الصدع كما تُصدع الزجاجة.

ونتأمل القول القرآني: ((**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ..**)) سورة الأنبياء/١٨، وحقيقة التعبير في هذه الآية: نورد الحق على الباطل فيذهبه..فالفعل (نقذف) قد استعمل في تعبير هذه الآية للتدليل على القهر والإكراه...فالحقّ يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشكّ و الارتياب...إذن فالفعل (يدمغهُ) أبلغ في الاستعمال من (يذهبه) لما في الفعل (يدمغهُ) من التأثير فهو أظهر في النكاية وأعلى قوّة في التأثير، إذن فلفظة (نقذف) الفعلية توحي بهذه القوّة التي ينزل بها الحق على الباطل. ولفظة (يدمغهُ) الفعلية توحي بذلك الصدام والصراع الذي نشب بين الحق والباطل وقد حطَّم الحقّ رأس الباطل فكان كالقذيفة المصوّبة التي تصيبه وتزيله من أساسه !!

ولنا أيضاً أن نتأمل القول القرآني: ((**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا..**)) سورة البقرة/٢٥٠، حقيقة الفعل (أفرغ) أفعل بنا صبراً، ولكن القرآن الكريم استعمل الفعل (أفرغ)؛ لأنّه أبلغ في التعبير من الفعل (أفعل) ولأنَّ في الإفراغ اتساعاً مع بيان، ولذا الفعل (أفرغ) الذي أُختير دون غيره في تعبير الآية الكريمة يوحي باللّين والرفق عند الحديث عن الصبر فإذا كان الحديث عن العذاب استعمل الفعل (صبّ) إذ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ((**فَصَبَّ**

عَلَيهِمْ رَبُّكَ سَوطَ عَذَابٍ...)) سورة الفجر/١٣. وهذا الفعل الذي ساقه القرآن يوحي أ، يؤذن بالشدّة والقوّة والقهر..

وبعد: فإنّنا نجد أنّ القرآن الكريم يتصرّف بالأفعال تصرّفاً أخّاذاً وعجيباً، فهو يسوقها ضمن مساقات مختلفة ومتعددة تنبعث منها الغايات والدلالات...!!!

لمحة عن السّلوك التّعبيري لفضيلة العَدل في البّيان القرآني

لقد أفرد البيان القرآني هداية القرآن بالعدل في آيات كثيرة اقف عند واحدة منها ما جاء في قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَينِ وَالأَقرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَولَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَو تُعرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً...))** سورة النساء/١٣٥.

وذلك لاستجلي من خلالها السلوك التعبيري الذي سلكته فضيلة العدل في نظم هذه الآيات الكريمة، لما لهذه الفضيلة من مكانة سامية سامتة في تعبير القرآن؛ إذْ إنّها تُعد أساس الفضائل العملية التي تقوم عليها الحياة النظيفة النقية بين الأفراد والجماعات. وما جاء في الآية هو الأسلوب في بيان القرآن الكريم لهدايته بالتعبير عن الفكرة في تقدير فضيلة العدل بوصفه

الخصيصة الفكرية والميزة البيانية التي لا نجدها البتّة في غير كتابنا الأكبر (القرآن الكريم)!!. والملحوظ في بيان هذه الآية الكريمة التي أوردتها قد وُجه فيها الخطاب إلى المؤمنين خاصة بعدّهم القوّامين الحق على أمانة الله تعالى وهديه في سياسة الخلق، وفي هذه الآية أيضاً نسمع هذا النداء الإلهي المتلطف لأولئك القوّامين على أمانة الله في سياسة الخلق وتدبير أمر الحياة ممّا يدّل على خصيصتهم في حمل أمانة العدل حتى يكون هذا خلقا لهم وجبلة في طبيعتهم الإنسانية التي صنعها الإيمان. وتعبير القرآن لم يقل (كونوا عادلين) ولم يقل أيضاً: (قوموا بالعدل) ولم يقل: (اقسطوا بين الناس) وإنما قال: (كونوا قوامين بالقسط) فالأمر بهذه الكينونة الفعلية معناه: اعيدوا تكوين انفسكم تمام التكوين، وكونوا خلقاً جديداً تعدون به انفسكم إعداداً خاصاً يكون به العدل عنصراً من عناصر تكوينكم الخلقي.

ومن هنا فأنّ اختيار لفظة (قوّامين) بهذه الصورة اللغوية يدل على مقصدية وهي أنّهم أريدوا ليكونوا في حياتهم [illegible] [illegible] [illegible] ... في حياة الناس

وليتأمل الناظر المدقق في أسلوب هذه الآية القرآنية المتسامي كي يرى كيف أُقيمت موازين العدل على النفس ثم خصّ الوالدان بالذكر وأجمل الأقربون فيما بعد ثم فليتأمل مرّة أخرى في أسلوب هذه الآية البياني الذي يُلمع إلى مداخل الضمير الانساني وكنهه. ويحذره من الخضوع في قضية إقامة العدل لهوى أو لعاطفة تتعلق بغنى لغناء، أو عاطفة ورحمة ترحم فقيراً لفقره فيميل مع هذه أو تلك!.

إذن فلا يحملن عزّ المال المؤمن إلى أن يجانب لأجله العدل ليظلم الفقير الذي لا مال له !! ولا تحملنه الرحمة بالفقير على المحاباة له فيظلم الغني!!

فالله تعالى هو الذي خلق الخلق وقسم بينهم أرزاقهم فهو بحكمته أغنى الغني وأفقر الفقير، والناس كلهم عيال الله وعباده يتساوون في حق القيام بالعدل بينهم، وهو أولى بهم، ولا ينبغي لمن شرّفه الله بالإيمان أن يتبع الهوى ويميل مع العواطف فيحيد عن الحق لياً بمنصب العدل وإعراضاً على النصفة.

لذا الآية الكريمة قد أبانت أمراً جليلاً وهو أنّ تحقيق القوامة بالقسط لايكفي وحده أن يكون وسيلة هذه الأُمةَ إلى غايتها النبيلة المرجوة، وإنّما تتطلب منها أيضاً أن يكون عملها نابعاً من القلب

والضمير، وأن تكون قوّاميتها بالعدل في إطار الإخلاص الأكمل الذي لا تشوبه شائبة الرياء والعجب الذي لا تنحرف به عن الجادة عاطفة قرابة أو عاطفة حُبّ أو بغض.

وبعد فإنّ التعبير بصيغة (قوّامين) قد حصل بها أكمل التّناسق والتّناسب بين الإعجاز البياني في براعة الأُسلوب والإعجاز المعنوي في سموّ هذا البيان القرآني في بعث النخوة الإيمانية لحمل راية هذه الفضيلة الفُضْلى (فضيلة العدل) في قلوب المؤمنين بها!!!

من بدائع الأسلوب القرآني

ينفرد القرآن الكريم بأُسلوبه؛ لأنّهُ ليس وضعاً إنسانياً البتّة، وقد أحسّ العرب بهذا واستيقن بلغاؤهم وفصحاؤهم ولذلك أفحمُوا وقطعَ خطابهم، لأنهم رأوا جنساً من كلام غير ما تؤديه طباعهم وعليه فالإعجاز الأسلوبي الذي اختصّ به القرآن، الكريم ما هو إلا ثوبٌ من نسيج الحِكمة العليا للقرآن كلام الله العزيز الذي وقع به أكملِ الاتساق والتناسب بين المعنى والأسلوب.

ولعل القوّة الكامنة في أسلوب هذا الكتاب الكريم هي السرّ في إعجازه البياني ذلك السرّ الغني الذي يملأ الإحساسِ به نواحي الشعور الإنساني دون أن يستطيع أبرع الناس بيانا وأبلغهم عبارة وأنصعهم مقالا بعبارة محدودة مضبوطة.

فإذا قرأت ما شئت من آي القرآن فلن تجده إلاّ مشيداً لصرح الخير والإصلاح أو هادماً دعائم الشر والفساد وهو في كليهما عبقري البلاغة والبيان... وبوسعنا أنْ نقف عند آية كريمة من آيات القرآن فنتأملها ونستجلي بدائعها التعبيرية اللطيفة جاء في قوله تعالى: ((**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ**...)) سورة البقرة/١٧. فالآية القرآنية تصور حال المنافقين الذين استبطنوا أخبث الكفر وأظهروا الإيمان خديعةً وزوراً فالمنافقون يحسبون أنّهم بتظاهرهم بالإيمان يخدعون الناس وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون فمثل الله حالهم بحال جماعة وقعوا في ظلمة واقبة فاستعدوا وجمعوا كل ما يملكون من وسيلة لايقاد نار يستضيئون بها ليكونوا بمنجاة من الأخطار الحائقة بهم في غمرة هذه الظلمات. وأوقدوها وأعدوا لها وتأهبوا به لإشعالها فلما أضاءت ما حولهم فأبصروا وآمنوا واستأنسوا بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية فتلاشت النار وعدم النور وتركهم حيارى في تيههم يعمهون. فنلحظ أنّ التعبير القرآني أورد (آستوقد) دون (أوقد)؛ لأنّ التعبير بالأولى أبلغ في تصوير المثل ليدل على حقيقة حال المثل له فليس معنى (آستوقد) رديفاً لمعنى

(أوقد) متحداً معه في الدلالة وإنما معنى (آستوقد) أوسع وأدقَ في دلالته على المعنى المقصود الذي وضع في مكانه ليدل عليه؛ لأنَّ (آستوقد) يشعر بالإعداد والأهمية وقوّة الإيقاد مما ينشأ عنه عموم الإضاءة من سائر الجوانب وعلماء اللغة يقولون: إنَّ زيادة المبنى يدلّ على زيادة المعنى وهذا أمر لازم في القرآن ومطّرد، إذ لن تكون فيه كلمة بلغت في البناء منتهى صيغتها مساوية في أداء المعنى لكلمة أُخرى من مادتّها لم تقع فيه وقصرت في بنائها عن صيغة اختها.

وإذا نظرت إلى قوله تعالى: ((**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**)) سورة البقرة/١٧، فسترى أنَّ التعبير القرآني لم يقل: ((ذهب اللّهُ بنارهِم))؛ لأنَّ المقصود لهم من استيقاد النار هو النور فإذا عُدم النور وبقيت النار بين ايديهم لانور لها فأبلسوا ووقعوا في تيه من الحيرة وأخذهم الدهش واستولى عليهم الرعب والفزع وهم يرون أصل النور ولا نور !!!

وجاء قوله: ((ذهب اللَّهُ بِنورِهمْ)) للطيفة بيانية من لطائف التعبير القرآني؛ وذلك لأنَّ قوله: ((ذهب اللَّهُ بِنورِهمْ)) يفيد أنَّ الله تعالى ينتزع النور منهم وأخذه إلى حيث شاء، فلا مطمع لهم في ردّه عليهم؛ لأنّهم يعلمون أنّهم لا سبيل لهم إلى الله بل أنَّ

معنى التعبير القرآني أدق لأنّه يفيد أنَّ الله ذهب بالنور وحُجبوا عنه بظلمات النفاق- ولله المثل الأعلى-.

أمّا التعبير الثاني فأنّه يفيد أنَّ الله تعالى أزال النور عنهم بإطفائه؛ وذلك لا يقطع طمعهم فيها يتعللون به من أسباب يستعيدون بها النور ولذلك جاء تعقيب تعبير الآية بما يفيد تيئيسهم من رجع النور ((**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ**)) إنَّ هذا ممّا يؤكد لنا سُمو التركيب القرآني بتخيره البالغ لما يتناسب مع بلاغته وفصاحته وإبداعه للأساليب ذات الأثر الكبير في توضيح المعاني وبثّها في النفوس...

من دقائق التّعبير القرآني

إنّ عظمة القرآن الكريم تستدعي منا أن نقف عنده ونجلس بين يديه، للتدبّر الواعي لأسلوبه العالي، والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في ذلك النمط الفريد من البيان المعجز، لأنّه كلام الله ليس كمثله شيء، وإذا كان كذلك فإنّ أسلوبه على وجه التحقيق ليس كمثله شيء بين الأساليب المعروفة!!

وعليه فالقرآن الكريم أهتم دوماً بالمعنى إذْ حرص على صوغ تعابيره الدقيقة الموحية التي هي ألصق بالنفس وأكثر تحريكا للذهن لتأخذ طريقها أو منفذها إلى مشاعر القارئ وأحاسيسه. وممّا يجدر بنا قوله هنا: إنّ الدارس القرآني يلزم أنْ يمتلك الحس الفني ويعتمد عليه قبل أن يعتمد على المستلزماتِ اللغوية التي حذقها، ليتمكن من إدراك شيء من فنية التعبير القرآني.

والملحوظ أيضاً أنّ دقّة المعاني تحتاج إلى براعة التعبيــر، إذ إنّ هذه البراعة والدقة في التعبير السبيل إلى دقّة المعاني العميقــة، وهذا مجلاه في البيان القرآني. وبعد، فسوف أعرض فـي هـذا المقام بعضاً يسيرا من دقائق التعبير القرآني:

أولاً: في قوله تعالى: ((ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ..)) سورة البقرة/٢، نلحظ أنّ التعبير القرآني لم يقل: (هُدًى للضــالين) إذ المعروف أنّ المتقين مهتدون فعلام لم يقل التعبير القرآني : (هُدًى للضالين) إذن فلا بد من وراء هذا التعبير الدقيق من ســرّ دلالي؛ لأنّ (الضالين) كما يرى بعض أصحاب التفســير القرآنــي فريقان: فريق حقت عليهم الضــلالة فبقــوا عليهــا مطبــوعين مجبولين، وفريق علم أنّ مصيرهم الهداية أي: أنّهم اهتدوا إلــى طريق الحقّ، إذن فلا يكون هُدًى للباقين على الضلالة، وبقــى أن يكون هناك هُدًى لهؤلاء الصائرين إلى الهدى أو الهداية. أقــول: لو جاء التعبير القرآني بهذا الإفصاح والتفصيل لقال عنهم: هُدًى للصائرين إلى الهدى بعد الضلالة، وفي ذلك تطويــل[٣٦]؛ ولكــنّ القرآن الكريم اعتمد على أُسلوب الإيجاز الذي يشعّ بالمعنى.

ثانياً: ما جاء في قوله تعالى: ((**وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**..)) سورة النور/١٥، فالملحوظ في تعبير هذه الآية الكريمــة

---

[٣٦] تفسير الكشاف ١ـ٢/٢٠

أنّه لم يكتف بذكر (القول) بل ذكر (بأفواهكم)، والمعلوم أنّ القول لايكون إلاّ بالأفواه، إذن فلا بدّ لهذا التعبير الدقيق من سرّ وغاية دلالية. فقوله (بأفواهكم) للدلالة على قصر المعنى على ما يكون باللسان أي: قول لا برهان عليه فهو يدور على ألسنتكم وأفواهكم لأنّ الشيء المعلوم المتحقّق يكون مرجعه القلب أو علمه في القلب فيترجمه اللسان، وهذا المعنى يسجلّه ويكشفهُ قوله تعالى:

((**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**..)) سورة آل عمران/ ١٦٧.

ثالثاً: ونقف عند قوله تعالى: ((**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**..)) سورة النجم/٢، فنلحظ أنّ تعبير الاية الكريمة جاء بـ (ما ضلّ صاحبكم) دون أن يأتي بتعبير آخر وهو: (ماضلّ محمد)، إذن فلماذا آثر القرآن الكريم التعبير الأول على التعبير الثاني؟ وبيان سرّ ذلك يمكن في أنّ التعبير الأول (ما ضلّ صاحبكم) مراد به تأكيد الحجة وإقامتها على الكفار ثمّ إنّ في هذا التعبير إيذاناً بوقوفهم على تفاصيل الرسول (ص) وأحواله ومشاهدتهم محاسن أوصافه العظيمة فهو صاحبهم وهم أعلم الخلق به، فهو منهم وهم منه: إذ أنّهم لم يعرفوه إلاّ أنّه الصادق الأمين كامل الأخلاق والصفات: إنّ هذا ليمثل حقاً الدقة التناهية في التعبير وفي التحديد الكامل للفظ والإتيان به في أخص معناه !!!

المقاصد الدلالية في التركيب القرآني

إنّ الأسلوب الذي جاء به القرآن الكريم معبراً عن معانيه وأحكامه وهديه وسحر بيانه لهو أسلوب جديد فريد، لم يعهده العرب من قبل، ولم يستطع أحد تقليده والنسج على سمته حتى الآن وإلى ما بعد الآن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وعليه فإنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مسالكه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، إذن فليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الجمة الكثيرة، وحسب القرآن أن يرمى أمراء البيان وأرباب الفصاحة بالحصر دونه، وحسبنا أن نقف عند مفرداته المتطورة الدلالة، وبتلك التراكيب التي ذهلت العقول بجمالها وروعتها، وأصبحت مضرب المثل في البيان على مرّ العصور والأزمان. وحسبنا أيضاً أن نتذوق عذوبته، وأن ندرك حُسنه من خلال بعض التصرفات البديعة التي حملتها أوتضمنتها هذه اللغة القرآنية الشريفة، وبإمكاني أن أورد جانباً يسيراً من هذه التصرفات القرآنيّة مع بيان مقاصدها أو أغراضها الدلالية.

أولاً: في المشتق: إذا ما قرأنا قوله تعالى: ((**إنّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِراً وَإمّا كَفُوراً**...)) سورة الإنسان/٣، فإنّا نتساءل عن هذه المقابلة بين صيغة (شاكراً) وصيغة (كفوراً). فالتعبير القرآني لم

يأتِ بهاتين الكلمتين على صيغة واحدة تحقيقاً للمماثلة فهو لم يقل: (شاكراً وكافراً) تعبيراً موحداً باسم الفاعل، ولم يقل: (شكوراً وكفوراً) تعبيراً موحداً بصفة المبالغة،إذن فاختلاف التعبير لابد من أنْ يتبعهُ مقصد دلالي، وتوضيح ذلك: أنَّ نعم الله على عباده كثيرة جمّة فكل شكر بإزائها قليل مهما بلغ، وكل كفر بها عظيم عظيم، لذلك فقد جاءت كلمة (شاكراً) على صيغة اسم الفاعل بغير صيغة المبالغة وهي مشتقة، للدلالة على أَنَّ الشكر مهما بلغ فهو قليل وضئيل في مقابل هذه النعم الفياضة. وجاءت كلمة (كفوراً) على صيغة المبالغة للدلالة على أن الكفر بهذه النعم الربانية هو أمر عظيم، يستوجب المبالغة والتهويل، وهذا في حقيقته يدلّ على براعة التصرف في اختيار الصيغ المختلفة في تعبير القرآن. ونلحظ في الآية القرآنية من قوله تعالى: ((**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**..)) سورة الحج/٢، إِنَّ التعبير القرآني اختار اسم الفاعل (مرضعة) دون صيغة النسب (مرضع) ولا بدّ لهذا التصرف القرآني من بعد دلالي، وهو أنَّ المرضعة التي هي في حال الإِرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي هي من شأنها أنَّ ترضع ولم تباشر الإرضاع في حالة وصفها به، فجاء التعبير القرآني بـ (مرضعة)ليدّل على أنّ ذلك الهول إذا

فوجئت به وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة!!.

ثانياً: في التنكير: وإذا قرأنا قوله تعـالى: ((**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**..)) سورة الحاقة/١٢، نلحظ أنَّ التعبير القرآني جاء بلفظة "أذن" على الإفراد والتنكير، وتفسير هذا التصرف القرآني ومقصده هو للاذان بأنَّ الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلّة من يعي منهم، للدلالـة على أنَّ الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عـن الله فهـي الشـيء الكثير والسواد الأعظم عند الله سبحانه وان ما سـواها لا يبـالي بهم باله.

ثالثاً في التثنية: وإذا وقفنا عند قوله تعالى: ((**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**..)) سورة المائدة/٦٤. قلنا لماذا جاءت التثنية في قوله تعالى: ((بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان)وهي مفردة في قوله تعالى: ((**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**..)) سورة المائدة/٦٤، وتعليل ذلك؛ لإثبات غاية السـخاء لله تعـالى ونفي البخل عنه وذلك أنَّ غاية ما يبذله السخّي بماله من نفسـه هو أن يعطي بيديه جميعاً فبُنِيَ المجاز على ذلك.

رابعاً: في استعمال الأفعال: وإذا وقفنا عند قوله تعـالى: ((**فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**..)) سورة المائدة/٧٠، نلحظ أنَّ التّعبير القرآني جاء بأحد الفعلين ماضياً والآخر مضارعاً، وهذا التّصرف القرآني مدعاة للتساؤل، ولا بدَّ لهُ من ملْحظ دلالي، وتفسير ذلك: أنَّه جِيءَ

بالفعل (يقتلون) على الصيغة المضارعة حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب والانبهار منها غاية التعجب والانبهار!! إنَّ ما قدمتهُ غيض من فيض، فتراكيب القرآن الكريم في دلالاتها، ومقاصدها وبديع إحكامها هي غاية بما تحملهُ من فيض المعاني وما تنطوي عليه من أسرار.

التأنق في الأسلوب القرآني

أُسلوب القرآن الكريم أنفرد به هذا الكتاب العظيم، إذ هو كلام الله تعالى، فهو وإن جاء على ما اعتاد عليه العرب من أساليب القول وفنونه ولكنه انفرد عنهم بإعجازه المنبثق من طريقة نظمه ومؤالفة ألفاظه، لذا جاء متميزا من أساليبهم، والأشياء التي يتشعبَ إليها أُسلوب القرآن كثيرة جداً وسأقف في هذا المقام عند مظهر التأنق الأُسلوبي القرآني، إذ نلحظ إنَّ الأُسلوب القرآني يتأنق في انتقاء اللفظة واختيارها، وهذا يعني: أنَّ أيَ لفظة لايمكن أن تستبدل بلفظة قرآنية وذلك لأنَّ اللفظةَ القرآنية لفظة منتقاة من بين مجاميع كثيرة من الألفاظ لما بين هذه الألفاظ من فروق دلالية، إذ تستعمل كل لفظة في التركيب القرآني لتؤدي معناها في دقةَ فائقةَ، حتى تتيقن أنت بعد طولِ تدبرٍ وتأمل، أنَّ هذا المكان الذي وردت فيه اللفظة القرآنية كأنما خلقت له خلقاً نبتت فيه، وإنَّ لفظة أخرى لايمكن توفيه المعنى الذي وفت به أختها؛ بذا فأنت تلحظ في الأسلوب القرآني أنَّ كلِ لفظة وُضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، وتجد أيضاً أنَّ كل كلمَة أو لفظة في القرآن تحمل معنىً جديداً بين هذه الألفاظ من تباين

وفروق في الدلالة ولما يبعث بعضها في النفس من إيحاءات خاصة إذ دعا القرآن ألا يستعمل لفظة مكان أخرى وهذا ما بيّنه قوله تعالى: ((**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**...)) سورة الحجرات/١٤. وهذه الآية الكريمة توحي بعدم التهاون في استعمال اللفظة وإنما توجه التدقيق فيها لتدل على الحقيقة المنشودة من غير لبس ولاتمويه. فعلى سبيل التمثيل استعمل القرآن لفظة (نضاختان) في قوله تعالى: ((**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**..)) سورة الرحمن/٦٦.

فـ (النضخ) (بالخاء): فوران الماء وقد جاء وصف العينين على هذا البناء ليعطي ملحظاً دلالياً لهاتين الجنتين إذ هما يفوران باستمرار لا ينقطعان، ثُمَّ إنَّ التعبير القرآني جاء بلفظة (نضاختان) ولم يجيء بـ (نضاحتان) وكلاهما للمبالغة وذلك: لأنَّ الوصف بـ (نضاختان) أقوى من الوصف بـ (نضاحتان)؛ لأنَّ النضح بالحاء: الرش: والنضخ بالخاء: فوران الماء كما يقرّر العالم اللغوي (ابن جني)[٣٧] ومن هنا نلاحظ أنَّ القرآن حينما وصف (العينين) اختار لفظة (نضاختان) لغلظ هذه (الخاء) فهي تشير إلى الماء الفوار المتدفق. حيث إنَّ بنية هذه اللفظة لها تأثير في زيادة المعنى وتكثيره والتوسع من نطاق دلالته لما فيها من الاستمرار والتجدد والمداومة في فعل التدفق مما يفخم هذا من

---

[٣٧] الخصائص ٢/١٨٢.

دلالة هذه اللفظة الوصفية وتعمقها في منعوتها، أمّا الوصف بـ (نضّاحتان) بـ (الحاء) فلا يقوى قوّة الأول (نضاختان)؛ لأنّ العرب جعلوا (الحاء) لرقّتها للماء الضعيف. والقرآن جاء باللفظ لما هو أقوى وأمتن في التعبير. ويتجلى التأنق في الأُسلوب القرآني أيضاً في مجال (التقديم والتأخير). فالجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي فتصوره بألفاظها لتلقيه في النفس، لذا فتقدم كلمة على أُخرى ليس صناعة لفظية فحسب، وإنمّا المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية على هذا البناء، فعلى سبيل التمثيل ما جاء في قوله تعالى: ((**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**..)) سورة البقرة/١٢٧.

فأنت تجد بعد الملاحظة أنَّ لفظة (اسماعيل) جاءت معطوفة على لفظة (إبراهيم) فهو مثل أبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخّره في الذكر يوحي إلى أنَّ دورهُ في رفع القواعد كان دوراً ثانوياً غير أساسيٍ ، وأمّا الدور الأَساسي فقد قام به أبوه إبراهيم (ع) وهكذا نرى أنَّ القرآن الكريم ينهج في ترتيب ألفاظه نهجاً فنّياً فهو يقدم ما يقدم لمعنى تفهمه من خلال التأنق في رصف الألفاظ كل هذا يُدركُ من خلال هذا النظم الربّاني العجيب !!.

عمل الكافرين في التّصوير القرآني

التّصوير أداة مهمّة ومفضلة في الأُسلوب القرآنـــي؛ وذلـــك لرسم صورة المشْهد المطلوب تصويره ولتقريبه إلى الأذهان، إذن فالتصوير يشخصّ الحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها ويجسّدها فـــي صورة تنبض بالحياة.. وآفاق التصوير في القرآن الكريم متعــدَدة النواحي والمواقف.. ولي في هذا المقال أن أُبرّز مثالاً واحداً عن كيفية رسم العمل الذي لا يقوم على أساس صحيح، فيذهب هبـــاءً منثوراً فهو لا ينفع صاحبه، وهو أحوج ما يكــون إلـــى الإفـــادة منه...

وأكمل أمثلة هذا النوع من العمل عمل كفر بمن هـــو ربّ الـــنعم وأصلها فهو الذي ربّـــى عبـــادهُ علـــى موائـــد فضـــله وكرمـــه وإحسانه... وسوف نتبّين حقيقةَ تصوير ذلك من خلال التّحـــديق والتأمل في قوله تعالى: ((**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ..)) سورة ابراهيم/١٨. فانظرْ معي في النص القرآني فتجد أمامك تسجيل عنوان الكفر على هؤلاء الكافرين، إذ وَسَمهم بهذه السِّمَة الكريهة البغيضة وهي مضرب مثلهم، ثم انظرْ إلـــى ربـــط الكفر بالاسم الكريم (الربّ) وخصيصته التعطف والتّحنان والتفضل

بأنواع التربية والتعهد بالفواضل والنعم..فالكفر به أبشع من الكفر بغيره كما هو مركوز في طبائع البشر، إذن فالنفوس البشرية أشدّ كراهية وبغضاً لمن أساء إلى من أحسن إليها... ثمّ إنّ هذه الآية الكريمة ألقت بأشخاصهم وبذواتهم في مهّب ريح الإهمال والإبطال وقد طوتْ عنهم كشحها وانصرفت إلى أهم أعمالهم التي عملوها في دنيا حياتهم من إحسان وبذل وإصلاح من دون أنْ يُقيموا لها دعائم ومساند من الإيمان بالربّ الكريم الذي أعطاهم ما مكّنهم من هذه الاعمال،إذنْ. فمثل هذه الأعمال كمثل الرماد، وحقيقة الرماد أنّهُ أخفَ وألين من التراب والرمل...وهذا الرماد وقع في مهبَ ريح في يوم عاصف، فهل تبقى الريح في اليوم العاصف هذا الرماد ؟ كلاً بل تمحقه محْقاً...

إنّ هذه الصورة تزيد حركة وحياة وانبعاثاً.. أجل، تزيد بحركة الريح في يوم عاصف، تذرو الرماد وتذهب به بَدداً إلى حيث لايتجمّع أبداً !!!. ولذلك جاءت النتيجة طبيعية تنساق إلى الأذهان دون كدّ أو تعب ((لايَقْدِرُونَ ممَّا كَسبُوا على شَيْءٍ)) اي: فلا يقدر الكفّار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر، كما لايستطيع أنْ يحصل الإنسان على شيء في الرّماد الذي طيرته الريح!!! ثم أنتَ تنظر إلى الفاصلة وكأنها

تحمل بين أطوائها كلّ ما صورته هذه الآية الكريمة مــن خيبــة وخسران وندم كبير ! فهم كما قال الله تعالى: ((**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ* لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**..)) سورة الغاشية/٢–٧. وهذا لون ساقه القرآن الكريم لتصوير عمل الكافرين وقد آفتنَ به افتناناً.

من صور أدب الخطاب في التّعبير القرآني

إنّ للقرآن العظيم أسلوباً خاصّاً وطرازاً مميزاً يعرفه أهله ومن مترج القرآن بدمه ولحمه! أجل لقد جاء القرآن على أُسلوب فريد ذي رنين نفّاذ واشعاع لمّاع في النظم، جاء فــي رائــع نظمــه، وعجيب صوغه..فكان بحق يمثل وجه الكمال اللغوي، إذ أحســن تبياء العرب وبلغاؤهم بطريقته ونسقه ومعانيه فعرف أرواحهــم وطّغ على قلوبهم...وبعد فقد كان لهذا القلم وقفة متأملــة فــي ساحات القرآن يمتلى في محاسنه ويرتاد رياضــه وينهــل مــن مناهله العذبة!!!. وفي مقالي هذا سوف أعرض صورة من صور أدب الخطاب، والنُطف فيه في تعبير القرآن والمثال على ذلك مــا جاء في قصة ابراهيم (ع) مع أبيه في كفرد، وعندما عرض عليه دعوته إلى عبادة الرحمن فخالفه، أقول: عرض عليه هذه الدّعوة

بأسمى طرق الخطاب واللطف فيه.. وهذا يستبين من خلال قراءة قوله تعالى: ((**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاًيَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً**...)) سورة مريم/٤١-٤٦. فإذا دققنا النظر في هذا النص المبارك فسوف نلحظ فيه أنَّ إبراهيم (ع) ابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره وإجلاله العالي وطاعته السامية. إذ هو لم يسمه باسمه أو يصرح به تصريحاً، ثم نلحظ أنَّ إبراهيم (ع) قد أخرج الكلام مع ابيه مخرج السؤال: إذ لم يوجه له الكلام على صيغة الأمر الصريح، جاء في قوله تعالى: ((**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولايُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً**)). فالملحوظ أنَّ إبراهيم (ع) نادى أباه متلطفاً بخطابه، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان فهو لم يأمره أمراً بأن يقول له : (لا تعبد) ثم قال: ((**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**))

فالملحوظ في تعبير هذا القول القرآني أنَّه كرَّر النصح باللَّطف ولم يصف إبراهيم (ع) أباه بالجهل الشنيع في عبادته الأصنام فهو لم يقل له: (إنَّك جاهل لا علم عندك): وإنَّما ترفَّق وتلطَّف في كلامه

ذ عدلَ عن إلقاء هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدلُّ على المعنـــى
فقال: ((**جاءَني مِنَ العِلمِ مَا لَمْ يأتِكَ**)) ثم قال: ((**يَـا أبَـتِ إنِّـي أخَـافُ أن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّـيطَانِ وَلِيّـاً**)) فعند تأمل هذا القــول
القرآني نلحظ أنَّ لفظ (يا أبت) ورد في كل خطاب وهذا دليل على
شدّة الحُبّ والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصـــواب
ذ رتّب إبراهيم (ع) الكلام في غاية الحُسن؛ لأنَّه نبَّـــه أوّلاً إلـــى
بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليـــد
الأعمى. ثم ذكّرهُ بأنَّ طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثـــم
ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفـــق!
وقوله : ((إنِّي أخَافُ)) يلحظ فيه أنَّ إبراهيم (ع) نَسَب الخـــوف
إلى نفسه وليس إلى أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق
عليه...وفي هذا القول أيضاً دليل على شدّة تعلق قلبه بمصـــالحه
قضاء لحق الأبوّة، وجاء التعبير القرآني بلفظ (يمسك) الذي هو
ألطف من غيره.أمَّا قوله تعالى: ((**قَالَ أراغِبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبْراهيمُ**)) فهو قول جاء على لسان أبي إبراهيم مخاطباً ابنه أعني ابراهيم
(ع) ومعناه: أتارك يا ابراهيم عبادة آلهتي ومنصرف عنها؟ وقـــد
جاء هذا الخطاب على وجهة الاستفهام الذي أُشرِبَ بمعنى التعجُّب
والإنكار، لإعراض إبراهيم (ع) عن عبادة الأوثان، فكـــأنّ تـــرك

عبادتها لايصدر عن عاقل. والملحوظ أيضاً أنّ اباه قابل استعطاف إبراهيم ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد. فناداه باسمه ولم يقابل قوله: (ياأبت) بـ (يابني).

ونلحظ كذلك أنّ الخبر (أراغب في القول القرآني المتقدم قد قدم وقد صدر بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنّها مما لايرغب عنها عاقل. وعليه فلم نجد دعوة عرضت بأسلوب رقيق ودقيق ولطيف ألين وأرفق من دعوة إبراهيم (ع) في خطابه لأبيه، ومع هذا اللّطف واللّين الذي بلغَ اقصاه، فقد كان ردّ والد إبراهيم من أقسى الردود وأشدّها. إذ قال له: ((لئِنْ لم تَنْتهِ لأَرجُمنَّكَ واهْجُرني ملياً)).

وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وكذلك شأن الكفر مع الأيمان وشأن القلب الذي هذّبهُ الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان. فكان جواب إبراهيم (ع) مما يلين الحجارة فقال: ((سلامٌ عليكَ سأستغفر لكَ ربّي)) إذن، فاي خطاب ألطف وألين من هذا؟ !!!.

من مسالك القرآن التّعبيرية

ما الإعجاز الأُسلوبي في براعة البيان العربي الذي اختصَ به القرآن الكريم إلاَّ ثوب من نسيج الحكمة العليا للقرآن كلام الله إذ وقع به أكمل الاتساق والتناسب بين المعنى والأُسلوب، فالناظر المتأمل والدارس المدقق للقرآن الكريم يلحظ أنَه انفرد بطريقة بديعة ولطيفة في أداء المعاني لا تُجارى، وأسلوب فن مُحْكم لا يُبارى. وفي هذا المقام يُمكن أنْ نَلْمح شيئاً من مسالك القرآن في التعَبير وما يفيض به من معانٍ حية، نتيجة دقةَ مراعاته لأساليب تأليف الكلام، والتَفنَن في استعمالها. فعلى سبيل التمثيل أنّ الكلام القرآني لا يختلف عن كلام العرب عامّة فيما يخص الجموع التي أوردها، ولكنّ بلاغة القرآن الكريم تسطع جلية في استعمالاته المختلفة للإفراد والتثنية والجمع، فنلحظ مثلاً: أنَّ بعض الكلمات لم تستعمل الا مفردةً في القرآن نحو: الماء، الارض، النور.. وبعضها لم يستعمل في القرآن إلا مجموعاً نحو: الآلاء، الأساطير، الامشاج، التراقي...وللقرآن حكمة بلاغية في استعمال المفرد وحده أحياناً والجمع وحده احياناً أخرى، فاستعمال (الماء) مفرداً دائماً فيه دلالة أو مغزى فالماء: رمز للنعمة الإلهية،

ورمز للطهارة، ونلحظ أنّ القرآن إذ أراد استعمال كلمة تدلّ على كثرة الماء الفياضة استعمل ألفاظاً أخرى مثل: الأنهار والبحار أو وصفه بنعت يدل على الكثرة كقوله تعالى: ((**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**..)) سورة القمر/١١، واستعمال (النور) مفرداً كذلك لما فيه من معنى الرشاد والهداية والحق، وسبيل الهداية والرشاد وطريق الحق واحد لا يتعدد. ثُمَّ إنّ غاية المهتدي الذي أنار الله تعالى قلبه وفتح جنانه، بما أفاض عليه من نوره، فهمه في هذه الحياة واحد هو طريق الحق بخلاف غيره، وكذلك من يجمعهم الله على نور هدايته نراهم على قلب رجل واحد، كالجسد الواحد. والبنيان المرصوص، بخلاف الذين في ظلمات الجهل يعمهون. فإنّ قلوبهم شتّى وأهواءهم مختلفة. ونلحظ في القرآن أنّه استعمل كلمة (آلاء) مجموعة دائماً؛ لأنّها الكلمة الجامعة لجميع معاني النعم الربّانية فهو تعبير عن واقع النعم المتعددة الكثيرة، إذ لا تنفع نعمة أو يستغني عن باقي النعم الأخرى، فلو كان الإنسان بصيراً مثلاً ولم تكن لديه نعمة السمع أو الذوق أو الحس، فإنّ تلك النعمة تبقى ناقصة لايشعر معها بلذة الحياة ومتعتها.

ونجد القرآن الكريم يسلك في استعمال الكلمات مسلكين: مسلك يستعمل فيه المفرد لغرض خاص ومسلك يستعمل فيه المثنى أو

نجمع لحكمة بلاغية تتعلق بالمعنى، إذن فـالقرآن يجعـل لهـذه
نكلمات حياة خاصة تعيشها الكلمات نفسها في نفس المسـتمع أو
نقارئ، وتصبح إشارة داخلية ترمز إلى معان موحية. وهذا يـدل
عنى أنّ للقرآن الكريم في استعماله للألفاظ شخصية إلهية خاصة
لا ينازعه فيها شيء من كلام بني البشـر. ومثالنـا علـى ذلـك
ستعماله لفظة (السماء) في موضع (السـموات) فـي مواضـع
خرى، فاستعماله للسماء مخصوص بمعنى التوحيد في الجهـة
كقوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ من السّماء ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ
كُلِّ شَيْءٍ..)) سورة الأنعام/٩٩. فكلمة (السماء) تـدلّ علـى أنّ
مصدر نعمة الماء سـماوي إلهـي، اما اسـتعمالها مجموعـة
سموات) فهو لمعـان منهـا: الكثيـرة، والتعظـيم والأهميـة،
والاستقصاء. ومثال المعنى الأخير قوله تعالى: ((**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**...)) سورة النمل/٦٥. ومثال آخر على
ستعمال الجمع دون المفـرد، اسـتعمال القـرآن الكـريم كلمـة
الظلمات)، بينما لم يذكر جمعاً للنور، وفي هذا لطـائف بلاغيـة
ظاهرة. فالظلمات على العموم رمز للشر والبلاء والمصيبة والباطل
أما النور فهو رمز للخير الواحد، وقـد اسـتعمل مـع الظلمـات
متعقبة بين الواحد الخير الذي لا يتفرق وهو الحق الذي لايتعدد،

وبين الشّر والباطل الكثير المتنوع البلاء وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ((**اللهُ ولّي الذينَ آمنوا يُخرِجُهمْ مِنَ الظّلماتِ إلى النّور**)) سورة البقرة/٢٥٧. وهنك مثال آخر فيه استعمل القـرآن كلمة (يد) مفردة واحيانا مثناة واخرى مجموعة، وفي كـل حالـة من هذه الحالات تعطي قيمة دلالية فقوله تعـالى: ((**يَـدُ اللهِ فـوقَ أيديهم**)) سورة الفتح/١٠. فقد استعملت كلمة (يد) مفردة لأنّها يد العهد ويد الحقَ، بينما في قوله تعالى: ((**قالَ يا إبليسُ ما مَنَعَكَ أن تَسجُدَ لما خَلَقتُ بيـديّ**..)) سورة ص/٧٥، فكلمة (يدي) هنا فيه تاكيد للصلة القائمة بين الله تعالى وبين آدم بالنسبة لخلقه. وفي هـذ تعظيم لشأن آدم وشأن الإبداع الآلهي في خلقه؛ وعليه فإنَ معنى (اليدين) في تعبير الآية الكريمة يراد بهما القوة والقدرة، وفي هذ المعنى نفسه نرى الآية الكريمة التي تتكلم على خليل الله ابراهيم وأسرته النبوية حين وصفهم القرآن الكريم بـــ (أُولـي الأيـدي والأبصار) للدلالة على القوة والكثرة والفضائل والمزايا وذلك في قوله تعالى: ((**واذكـرْ عبادَنـا إبـراهيمَ وإسحاقَ ويعقـوبَ أولـي الأيـدي والأبصارِ**..)) سورة ص/ ٤٥.

في محيط الجملة القرآنية

ترتيب الجملة القرآنية بناء أُحكمت آياتــه، وهيكــل نُســقت لبناته، ونُظمتْ أدق تنظيم. وقد تجاوبت كل جملة مع رصــيفتها؛ وذلك لأنّ التآخي في المعاني كالتآخي في المباني. فمــن الكلمــة البليغة السامية الدالة على المعنى بأدق دلالة وأبلغ مقصد صنعت الجملة القرآنية وهي جملة موحية معَبرة بتركيبهــا. ويمكــن أن نلتمس ذلك من خلال الإمعان في قراءة بعض الآيات الكريمة في قوله تعالى: ((**انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِـي سَبِيلِ اللَّهِ..**)) سورة التوبة/ ٤١. وكذا جميع الآيات التي وردت في الجهاد بالنفس والمال. إذ تجد في هذه الآية تقديم الجهاد [illegible] على الجهاد بالنفس مع أنّ الجهاد بالنفس أفضل من الجهاد [illegible] بالاتفاق. وإنما أُريد بتركيب الجملة على هذا النحو [illegible] وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس. فإذا مــا [illegible] وجب على القادر الخروج بنفسه. فإن لم يستطع [illegible] وجب عليه أن يضحي بماله.

وأما قوله تعالى: ((**إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** [illegible] سورة التوبة/ ١١١. فالملحوظ فيه تقديم الأنفس [illegible]

الجهاد في هذا الموضوع ليس غير، ولا بد لهذا التقديم من سرّ او لطيفة فتقديم الأنفس هنا هو الأُولى؛ لأنَّها هـي المشـتراة فـي الحقيقة، ولأنَّها هي السلعة التي استامها ربها، وطلـب شـراءها لنفسه، فالأنفسُ هنا هي المقصودة بعقد الشراء، والأمـوال تبـع لها، فاذا ملكها مشتريها ملك مالها، فأنَّ العبد وما يملكه لسـيده. والبين هنا أنَّ الجملة القرآنية لم تصرّح بهـذا المعنـى، ولكـن تركيبها يفهم هذا المعنى أو يوحي أليه.

وقد فرض الله تعالى الحجَّ على عباده، وكان تركيب الجملـة في التعبير عن هذا الافتراض تركيبا معجزاً وعلى غاية من الدقة والروعة يوحي أو يوميء إلى معانٍ لا يمكن أنْ يوميء إليها أي تعبير آخر، تأمل قوله تعالى: ((**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**..)) آل عمران/٩٧.

فالملحوظ في الآية الكريمة أنَّهُ قدم اسم الله تعالى، وأُدخلَ عليه لام الاستحقاق والاختصاص، فقال: (ولله) ثم ذكر من أوجبهُ عليهم بصيغة العموم الداخل عليها حرف (على) فقال: (على الناس) ثم أُبدلَ منهُ، أهل الاستطاعة فقال (من استطاع).

وفي هذا التّعبير نوعان من التاكيد، أحدهما: إنّ الابدال فيـه تثنية للمراد، وتكرير له. والثاني: أنَّهُ أوجَب هـذا الإيجـاب فـي

صورتين: أحدهما مجملة، والأخرى مفصلة، ثم نكّر (السبيل) في سياق الشرط، فقال (مَن استَطاعَ إليْه سبيلاً): وذلك إيذان بانه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، فحصل الوجوب بحصول ما يسمى (سبيلا) وفي البدل في هذه الآية الكريمة سر لطيف يؤكد هذه الشعيرة الدينية، فـ (من) بدل من (الناس) والبدل يقتضي ذكر الاسناد مرتين: مرة باسناده الى عموم الناس، ومرة باسناده إلى خصوص المستطيعين، وفي هذا التعبير تقوية للمعنى، وتاكيد للمضمون.

كما أنّ في هذا التعبير ايضاحاً وتبييناً بعدم إبهام، وتفصيلاً بعد إجمال...وبعدُ: فالجملة القرآنية قد سبكتها القدرة الآلهية سبكا في أسلوب عربي متين، تتمتّع بخصائص جمالية وفنّية تدع القارئ ينصهر في جوها كلما أمعَن وتدبّر!!!

الرّمز في التّعبير القرآني

الرمز في المفهوم اللغوي يعني: الإيماءة والاشارة إلى الإفهام من غير كلام وهذا ما أشار إليه القول القرآني المبارك: ((**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً**..)) سورة ال

عمران/٤١. فهذا القول خطابٌ مُوجّهٌ إلى النبي زكريا، وقد عُدَّ هذا الرمز الوارد في الآية الكريمة مجازاً من باب الكلام؛ لأنّهُ يُرادُ به الإفهام، والمعروف أنَّ الإفهام كما يكون بالكلام ويكون أيضاً بالإشارة والايماءة رمزاً يعرف بالنظر والتأمل والتدقيق، كما يتعرف إلى معنى الكلام بالسمع بين المتكلم والسامع...والرَّمز لايكون ذا أهمية وأعتبار إلا إذا كان معروفاً معهوداً بين المتعاملين به متعارفا على دلالته بينهم كما هو الحال في اللغة التي لاتكون لغة ذات شأن واعتبار إلاّ إذا تعارف عليها أهلها وتواصوا بالتفاهم بها وإلاّ كانت مجرّد أصوات لا قيمة لها. والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين مما جرى على ألسنة العرب من مفردات وتراكيب بحيث يعرف كل من تعلم العربية وفقه أسرارها يعرف استجلاء بعض دلالات الآيات القرآنية. إذن فوراء هذه الدلالات القرآنية بصائر نافذة وعقول راجحة تتدبّر الكلام القرآني. ومعلوم للعقل أنَّ الكناية والتّورية مثلاً تُعدُّ من أهمّ طُرق الرمز وأساليبه في تعبير اللّغة العربية إذ استعملها العرب شعراً ونثراً [illegible] بصيرة وفطنة من وراء الكناية والتورية [illegible] في التعبير القرآني شيء من هذا القبيل، فعلى سبيل التمثيل ما جاء في قوله

تعالى: ((**أو كصيّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلونَ أصابعَهُم في آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ..**)) البقرة/١٩.

إنّ أول ما يتبادر إلى الذهن إنّ هؤلاء الضالين قد أخذتهم السماء بوابلها المنهمر وقد لفهم الظلام الداجي بردائه الكئيب الكثيف وقد تراقصت فيه ومضات البرق. وقصف الرعد المنذرة بالصواعق الماحقة، وقد وضع هؤلاء الضّالون أصابعهم في اذانهم حتى لا يسمعوا نذير الموت... ولكن وراء هذا الفهم الظاهري أو الفوقي فهم أعمق لا يخفى على ذوي البصائر، فوضع رؤوس الاصابع في آذان دلالة على دفع خطر الصواعق المدمّرة لكي تسد كل منفذ فهي كناية عن شدة الفزع والهلع والهول الذي يحيط بهؤلاء الضالين التائهين!!!

وجاء في قوله تعالى: ((**أو جاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائط..**)) سورة النساء/٤٣.

فالغائط في اللغة: هو المكان المنخفض من الأرض[٣٨] وهو الفهم المتبادر والمباشر ولكن وراء هذا المعنى معنىً عميقٌ وهو تعبير كنائي يرمز إلى قضاء الحاجة بعيد عن أنظار الناس...

---

٣٨) تنظر على سبيل المثال المعاجم اللغوية: أساس البلاغة للزمخشري، والقاموس المحيط، والمصباح المنير مادّة (غوط)

وجاء في قوله تعالى: ((ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ ...)) سورة الاسراء/٢٩. فإذا ما تأملنا هذه الآية الكريمة في جزئها الأول وهو ((**ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ** نلحظ أنَّ ظاهرهُ نُصح بالإنشدَّ إيدينا إلى أعناقنا بالاغلال، وأمّا الذي وراء هذا الظاهر فهو نهي بأُسلوب النُّصح عن أنْ لنْ نكون بخلاء مقترين إذن فهذا التعبير الكنائي يرمز إلى صفة البخل والتقتير..

أمّا الجزء الثاني من الآية الكريمة ((ولا تبْسُطْها كُلَّ البسْط)) فهو في ظاهره نُصْحٌ بألاّ نبسط أيدينا إلى أبعد الحدود من المدى الطبيعي الذي يمكن أن نبسط فيه، أمّا الذي وراء هذا الظاهر الملحوظ فهو نهي بأُسلوب النصح عن أن نكون مسرفين فيما ننفق على أنفسنا أو على الناس.

إذن فهذا التعبير الكنائي يرمز إلى صفة الإسراف الشديد.. وجاء في القرآن الكريم بصدد نوح (ع) وقومه: ((وحملناهُ على ذات ألواحٍ ودُسُر..)) سورة القمر/١٣.

في هذا المثال القرآني نجد خبراً دينياً مضمونهُ أنَّ الله تعالى قد حمل نوحاً (ع) بعد أن أغرق الأرض بالطوفان على ((ذات ألواح ودُسُر)) إذن فما هذا الشيء الذي رمز إليه تعبير القرآن بالألواح والدُّسُر وقد حمل نوحاً فوق عباب الماء الطاغي!!

لاشك في انك حينما تتدبر تعبير الآية الكريمة نجـد أنَّ تعبيـر القرآن قد كنَّى عن السّفينة وهو المعنى العميق بـ (ذات ألـواح ودسر) وهو المعنى المباشر الظاهري، ولهذا تلحـظ أنَّ القـرآن الكريم رمز إلى السّفينة بهذه الصفة عن طريق التعبيـر بـالـلاَّزم وإرادة الملزوم. فالشيء الذي يتألف من ألواح ومن أمراس تشـدّ هذه الألواح بعضها إلى بعض بحيث تنقل ناساً فوق الماء لا يكون إلا سفينةً، لذا، إنَّ (ذات ألواح ودُسُر) صفة تختص بموصـوف معيَّن يرمز إِلى (السفينة).

تأملات في بعض أمثلة القول القرآني وقفة عند بعض مقصدية الحذف

الملحوظ فـي لـغة القرآن أنهُ تناول كلّ شأن مـن شـؤون القول، إذ يتخيّر له أشرف المواد وأمسها صلة بالمعنى في لفظـة يكون مرآتهُ النّاصعة وصورته الكاملة... والكلام بهـذا الشـأن يحتاج إلى وقفات طويلة، ونجمل القول: إنَّ القـرآن هـو المثـل الأعلى في صناعة البيان! إنَّ الذي نريده في هذا المقال أنْ نمس جانب الحذف مسّاً خفيفاً من خلال تأمل بعض الآيـات القرآنيـة لاستجلاء هذا المظهر الأسلوبي وبيان قيمته الدلالية.. يقول عبـد

القاهر الجرجاني بشأن الحذف: أنَّهُ (باب دقيقُ المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، فإنَّك ترى به تركَ الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصَّمت عن الإفادة، أزيد للإفادة)[39]؛ لأنَّ في ذلك يتضاعف إحساس المتلقي بالفكر، وكثيراً ما نجد هذا الحذف قد وضع مكانه نقاطاً متقاربة في أثناء الكلام؛ للايحاء بهذه الدلالة التي تخصب المعنى وتثريه.. وبعد، يمكن أن نقف عند بعض القول القرآني لتجلية قيمة هذه الظاهرة، فأقول: إنَّهُ من الممكن أن تتآزر القرائن السياقية للكشف عن قيمة هذا المظهر اللغوي (الحذف) كما في قوله تعالى: ((**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**..)) سورة الإسراء/٧. وكذلك قوله تعالى: ((**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**..)) سورة فصلت/٤٦،

وتقدير المحذوف في الآية الأولى/ (فإساءتكم لها) وتقدير المحذوف في الآية الثانية: (إساءته عليها) حيث نلحظ أن المحذوف في هاتين الآيتين الكريمتين هو المسند إليه (المبتدأ) وقد جاء هذا الحذف بعد (الفاء) المقترنة بالجملة الاسمية الواقعة جواباً للشرط..

---

[39] دلائل الإعجاز /١٤٦.

نستبينُ أنَّ هاتين الآيتين تقرّران قاعدة الجزاء من جنس العمل ومن خلال الأُسلوب الشرطي الذي يؤكد هذا التقريـر... والـذي نتأملَّه أيضاً في هاتين الآيتين القرآنيتين هو على الرَّغم مـن أنَّ الجزء الأول فيهما يمثّل عُموماً وشمولاً في مفهومي (الإحسان) و (العمل الصالح). على وفق قاعدة الجزاء والعامل يُلْحَظُ في هذا الجزء أنَّ التّعبير كان أكثر امتداداً من الجزء الثاني الذي يخـصّ (الإساءة)؛ لأنَّهُ يتطلّب الحسم وسرعة التقرير فيهما ممّـا يـؤدي هذا الاختصار بحذف المسند إليه، وأما فـي الجـزء الأول فـإنَّ الامتداد الذي فيه يوحي بحث خفي على الإحسان والعمل الصـالح وهذا ما يستشعرهما المتلقي. كما أنّ التقابل في فكرة كـلّ آيـة بجزأيها يغمر المتلقي بفيض من الدلالات المنبعثة مـن المقارنـة بين الفكرة ونقيضها..حتى تكتمل صورة الإنسان السوي. ويمكـن أنْ نقف عند مثال آخر يكشف عن قيمة حذف المفعول بـه فـي الكشف عن بعد الدلالة، وذلك في قولـه تعـالى: ((وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ...)) سورة الضحى/١-٣.

فهذه السورة الكريمة لمسة حنانية من المـولى عـزّ وجـلّ لرسوله الكريم (صلىّ الله عليـه وآلـه وسـلم) عنـدما زعـم

المشركون أنَّ محمداً قد وَدَّعهُ ربُّهُ، فكانت هــذه الســورة بــرد
وسلاماً على الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) يواجــه
بها شماتة المشركين، وتسبغ عليه فيضــاً مــن الــودّ والمحبــة
الإلهية.

ومن هنا كان هذا الــربط القرآنــي بــين الظــواهر الكونيــة
والمشاعر النفسية فقد ابتدأت هذه السورة الكريمة بالقسم بأصفى
آنين وهما: الضحى الرائق، والليل الساجي، إذْ تتراســل مشــاعر
النفس بأحاسيس الطبيعة، وتغمر الطّمأنيْة نفسيّة الرسول الكــريم
(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد نفت هذه السورة نفيــاً قاطعــاً
زعم المشركين الواهن، عندما جعلته نفياً ماضياً يمتد على وفــق
طبيعة السياق والنسق إلى الحاضر.

وبعبارة أجلى أنّ هذا النفي يمتد من خلال العطف، نفياً مطلقــاً
لأي كراهية أو بغض من الله سبحانه وتعالى لرسوله المصطفى.
وإذا تأملنا قوله (وما قلى) فإننّا ننظــر إلــى نســق الصــيغة
القرآنية المثلى، وعندما يوظف الفعل الذي حُذِفَ مفعوله... وكنّي
بهذه الصياغة القرآنية تأبى الجمع أو الربط بين هذا الفعل الــدال
على البغض والكراهية وبين الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله
وسلم) حتى لو كان هذا الفعل منفياً، وذلك اجلالاً للرسول الكريم

وتعظيماً له وطمأنة لمشاعره، وثباتاً لليقين في نفسه، ولذلك لم تقل الآية (وما قلاك) لذا إنَّ (الكاف) المفعول به التي تعود للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد حُذِفَت لسّر لطيف وغرض بديع وهو لئلا يواجه بالقلى إكراماً لرسول الله من أن يمسه الفعل فاكتفى بالمفعول السابق لهذا المقصد.

من خلال هذا التمثيل بالقول القرآني يُدرك المتأمل القيمة الفنّية للحذف، وهو يستثير فكرة المتلقي حول هذا المحذوف، وما ارتبط به من علاقات دلالية، وفي هذه الحالة يتضاعف إدراك المتلقي وإحساسه بالفكرة التي تدلّ عليها العبارة ذات القّوة التعبيرية، وما توحي به من معانٍ ودلالاتٍ.

من صور أسلوب المحاورة في التعبير القرآني

القرآن الكريم راسخ في عزّته أمام النزاع العلمي الذي يجري من حوله تباين الآراء والأفكار...إذ إنَّ القرآن راسخ رسوخ العلم الأشم... وبذا فإنَّ القّوة الكامنة في أُسلوب القرآن هي السرّ في إعجازه البياني، ذلك السرّ الفني الذي يملأ الإحساس به نواحي الشعور الإنساني دون أن يستطيع أبرع الناس بياناً وأبلغهم تعبيراً

وأمتنهم نسجاً للكلام من أن يأتي بمثل هذا النسج الرّباني الـــذي لايأتي بمثله أبداً!!

ودارس القرآن بتردد نظره المتأمل يرى أنّ كلماتـــه المفــردة صور من المعاني والحقائق، فكل كلمة رسالة أو كتاب في تحليلها وتفصيل ما طوى فيها، وقد تجري بعض هذه الكلمات القرآنية في كلام بعض حُذاق الكتابة، ولكنها لا تقع ذلك الموقع الــذي يخلـع القرآن عليها من براعته البيانية في أسلوبه.. ولي أنْ أختار نصاً قرآنياً للنظر فيه إبانة عن صورة من صور أسلوب المحاورة فـــي تعبير القرآن ذلك الأسلوب الذي جاء به القرآن بما يمـــلأ القلـــب مهابةً وإجلالاً ونبّه فيه إلى دقائق نفسية من أصدق مـــا ينطبـــق على حقائق الناس في واقع وجودهم في هذه الحياة...فاقرأ قولـــه تعالى: ((**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**...)) سورة إبراهيم/ ٢١-٢٢.

وأنظر بعد ذلك إلى تصوير الضعفاء الأتبـــاع مـــع الأقويـــاء المتبوعين بعد أن أُزيلت عنهم أوهام القوّة والتعالي التـــي كـــانوا يتيهون بها في الدنيا تيهاً على عبادة الله تجبراً واســـتكباراً فـــي

الأرض إذ عتوّا عتوّاً شديداً على الضعفاء المحرومين...ثم انظـر متأملاً خبث الشيطان المريد وسخريته واسـتهزائه مـن جنـوده المجندة الذين ممن قلّده في صلفه واستكباره وطغيانه وذلك بعـد أن تكشف له ولهم عواقبهم من مقت الله تعالى وغضبه وعقابـه الشديد !! ثم تأمل ملياً قوله تعالى:: ((**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً**)) لتدرك تمام الإدراك ما في هذا التعبير من دقّة تعبيريةٍ بارعة، فهو يشير إلى الظهور والتجلّي والانكشاف عن ظهور هؤلاء القادة المسـتكبرين المتبوعين، والضعفاء المغلوبين الذين يظهرون جمعاً مجتمعـين في يوم الحساب، وهذا ما تومئ إليه صيغة الفعل (برزوا) إذْ كان هؤلاء القادة المستكبرون لا يظهرون مع اتباعهم الضـعفاء فـي الدنيا إذ هم يأنفون من أن يظهروا معهم !! وفـي هـذا التعبيـر إشارة أو إلماعة إلى ما كان عليه هؤلاء القادة المستكبرون مـن التخفي والتستر عن الأنظار في أحوالهم الخاصّـة التـي كـانوا يقضون معظم أوقاتهم في العبث وارتكاب الفواحش...والإفساد في الأرض، اعتماداً على ما كان لديهم من أسباب الدنيا ممّا يسترهم من القصور المشيدة والصروح الشامخة عن أنظار الناظرين !!

والملحوظ أيضاً في هـذا الـنص القرآنـي ربـط الفعـل (بَرَزُوا) بلفظ الجلالة بحرف اللام إشارة إلى ما كانوا عليـه مـن

استخفاف برقابة الله تعـالى واطلاعـه علـى خفايـاهم.. وهـم متوهمون كل الوهم أنّهم استتروا عن الناس اسـتتروا عـن ربّ الناس العليم الخبير، فلمّا ذهب عنهم ما كانوا به يستترون خرجوا من مخابئ استتارهم وأوهامهم إلى سـاحة الحسـاب والكشـف والظهور عمّا كان خافياً ومستتراً في الدنيا!! ثم تأمل عنوان كـلّ طائفة فـي هـذه المحـاورة، فالأتبـاع هـم الضـعفاء الأذلاء، والمتبوعون هم الأقوياء المستكبرون وفي التعبير عـنهم بالـذين (استكبروا) مايدّل على أنّهم استحدثوا هذا الاستكبار ولـم يكـن لديهم من أسبابه أيّ سبب، وصيغة (استكبروا) تدلّ على التعجرف وتكلف الكبرياء والتشامخ الأجوف!! ثم ارجع النظر وتأمل خذلان قائد المستكبرين ومقدّمهم في الضلالة والتضليل لأتباعه المتكبرين وتبرّئه من جريمة إضلالهم، فهو الـذي زيّـن لهـم الاسـتكبار فضيلة.. وبأنّه ما كان له مـن سـلطان يُقسـرهم علـى الكفـر والاستكبار والغطرسة على خلق الله إذْ كَشَفَ لَهُم عجـزَهُ وأنّـهُ وإيّاهم في ضلال مبين! ولم يكتـفِ الشـيطان بخـذلان أولئـك المستكبرين وعجزه عن مؤآساتهم بل أخذ يـوبخهم علـى أنّهـم انقادوا له من دون تعقّل وتبصّر وتدّبر ما كان حولهم في الـدنيا من عظاتٍ وعبرٍ! إذن فاللوّم واقع على أنفسهم لا على شـيطانهم

الذي ورطهم.. والذي يعترف أمامهم تمام الاعتراف بالتنكيل بهم ذلك التنكيل...وبأنَّهُ عاجز أنْ يغيثهم كما أنَّهم عاجزون عن إغاثته، وكلّ في هذا العذاب الأليم مشتركون ومجتمعون فأنى يذهبون؟ !!

من دلالات اسم الموصول النعتي في التعبير القرآني

الموصول النعتي يحتاج لتعيين مدلوله وإيضاح مراده ومقصده إلى مقطع جملي كما يذهب أصحاب الدراسات اللغوية الحديثة، وهو المعروف في النحو العربي بـ (صلة الموصول) وعليه فالاسم الموصول لايمنح بحكم العادة محلاً من الإعراب ولكن الصلة هي التي تجعل المعنى واضحاً وكامل الإفادة لذا فمعنى النعت لا يتحقق إلاّ من خلال الصلة؛ لأَنَّ المجيء باسم الموصول دائماً في التركيب يثير في النفس الشوق إلى معرفة الخبر وقد تكون الصلة نفسها ممتدة لهذا الخبر ودالة عليه. وأقول: إنّ مجيء اسم الموصول نعتاً في القرآن الكريم يمثل في حقيقته وظيفة شكليةٍ مثل المواقع النحوية المختلفة ألاخرى التي يتخذها؛ ومن هنا فإني استطيع أن أذكر بصورة موجزة أهم الوظائف السياقية أو (المقامية) للموصول النعتي من خلال الاستعمال القرآني من ذلك:

١-المدح: عند تتبع الموصول النعتي مع صلته في القرآن نجد أنَّ كثيراً منه في السياق يُشعر بالمدح ويتجلى ذلك بقوله تعالى: ((**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**..)) سورة المائدة/٤٤. فالموصول (الذين) مع صلته نعت أو صفة للتبين على معنى المدح والثناء لا على معنى النعت أو الصفة التي يؤتى بها للفرق بين الموصوف وبين من ليس صفته نحو القول: (رأيت زيدا العاقل) فالنعت في هذا التركيب يحتمل أنك جئت به للثناء والمدح كالآية الكريمة ويحتمل أنك جئت به للتفريق بين (زيد العاقل) وبين آخر ليس بعاقل وهذا لايجوز في الآية؛ لأنه لا يمكن أن يكون لهم نبيون غير مسلمين كما يحتمل أن يكون ثم زيد آخر غير عاقل. ومنه أيضا قوله تعالى: ((**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**...)) سورة البقرة/الآيات٢-٤، فالموصول مع صلته وقع نعتا في تركيب الآية الكريمة من لفظة (المتقين) وهذا أحد الأوجه المختارة في الإعراب وجاء هذا النعت للدلالة على المدح. وقد وردت صلات الموصول النعتي (الذين) أفعالاً مضارعة ولم يجعل هذا الموصول (أل) فيوصل بأسم الفاعل؛ لأنَّ المضارع كما ذكر البيانيون مُشعر بالتجدد والحدوث بخلاف اسم الفاعل فهو عندهم مشعر بالثبوت والأمداح في صفة المتقين تجدد الأوصاف[٤٠].

٢- الذم: وكما سيقَ اسم الموصول النعتي للمدح على ما بيّن سيقَ أيضاً للذم وهذا ما يُستجلى من خلال سياق الآيات التي ذُكر

[٤٠] ينظر: تفسير البحر المحيط ٣٩/١ وينظر النعت في التركيب القرآني/٢٠٥.

فيها الموصول النعتي منه ما جاء في قوله تعالى: ((**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ**...)) سورة البقرة/٢٦-٢٧، فاسم الموصول (الذين) مع صلته وقع نعتاً للفاسقين للدلالة على الـذّم وتقرير الفسق ونظيره قوله تعالى: ((**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**...)) سورة المطففين/١-٢، فالموصول وما في حيّز صلته نعت او صفة كاشفة للمطففين شارحة تطفيفهم الـذي استحقوا به الذّم والدعاء بالويل. ويجاء بالموصول النعتـي مـع صلة للدلالة على (التحقير) وهذه الدلالة تدخل ضمن دلالة الذّم من ذلك ما جاء على لسان إبراهيم (ع) لابيه وقومه في قوله تعـالى: ((**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**...)) سـورة الأنبياء/٥٢، فالملاحظ أنّ قول ابراهيم (ع) لأبيـه وقومـه جـاء تحقيراً لشأن هذه التماثيل وتوبيخاً على إجلالها فالتماثيل صورة لا روح فيها فهي لا تضر ولا تنفع.

٣- للتعليل أو للسبب: وذكر الموصول النعتي في السياق قد يشعر أيضاً بالتعليل وهذا ما يتجلى في قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**..)) سورة البقرة / ٢١ فالموصول مـع صـلته جرى (نعتاً) لـ (ربكم) سبحانه إذ أنّ سياق الآية يوحي بالتعليـل والسبب؛ ذلك لأنّ الآية الكريمة هي تذكر الناس بنعم الله علـيهم فخلقهم وايجادهم بعد أن لم يكونوا سبب في حتمية قصر العبـادة لله تعالى والتقريب إليه.

٤- الإعتراف: وكذلك يكون التعبير بالموصول النعتي مع صلته للدلالة على الإعتراف بفضل المتحدث عنه إذ يستحقّ في نظر المتكلمين تقرير هذا الاعتراف وعلو منزلته وهذا كما يُلمع من قوله تعالى: ((**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ..**)) سورة الحشر/١٠، فالآية الكريمة تتحدث عن أصناف المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل فقوله تعالى: ((**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ**)) هم الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للفضل فهم يدعون لاخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان وقد نعتوهم بالإيمان اعترافاً بفضلهم.

٥- للتأكيد: وقد يُجاء بالموصول النعتي مع صلته على التوكيد وهذا يُلمح من قوله تعالى: ((**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..**)) سورة الروم/٣٠، فقد ساق القرآن الموصول مع صلته في تركيب الآية على سبيل (التوكيد) بالنعت لـ (فطرة) وذلك لوجوب الإمتثال للأمر فالله تعالى خلق الناس على فطرته التي هي عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه وهي فطرة التوحيد.

٦- التخصيص: ومنه دلالة الموصول النعتي على التخصيص كما في قوله تعالى: ((**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى..**)) سورة النجم/٣٦-٣٧،

فالموصول النعتي سِيقَ في الآية الكريمة تخصيصاً لإبراهيم (ع) بتوفاء لاحتماله ما لم يحتمله ولتبليغ رسالته على وجه الكمال.

وهكذا نرى أسم الموصول النعتي في التعبير القرآني لا ينحصر بدلالةٍ واحدةٍ وإنّما تتعدد دلالاته على وفق السياقات التي يحيا فيها.

تأملات في اللغة القرآنية

لقد كان للغة وألفاظها وتراكيبها حظٌ غير قليل من العناية فإنّها في حقيقتها ليست عناية لغوية بقدر ما هي عناية بالإمعان في النظر إلى كتاب الله تعالى وتذوق حكم آياته، ومحاولة لإدراك سرّ الإبداع في الاستعمال القرآني للغة العرب وللتعرّف على ما يمتاز به الاستعمال البديع الذي تقصر البلاغة بحدودها المعروضة عن استيعابه والإحاطة بأطرافه. ولي أن أتأمل وأنظر في لغة القرآن الكريم هذه اللغة الشريفة التي يعدّ نظمها جنساً متميزاً وأسلوباً متخصصاً ومستخلصاً!! فنقف عند القول القرآني: ((**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى...**)) سورة العلق/١-٨،

فنلحظ أنَّ هذه السورة المباركة قد بــدأت بالصــيغة الفعليــة الخطابية (اقرأ) ثم انتقل التعبير من صفة الخطاب إلى صفة الغائب إذ قال (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) وهذه الطريقة في التعبير تُسـمى بــ (الالتفات) وهي قيمة من قيم استعمال الفن البلاغي، وكذلك يلحظ هذا الفن التعبيري أي: الالتفات في قوله تعـالى: (إِنَّ إِلَـى رَبِّـكَ الرُّجْعَى) وهذه الإشارة التعبيرية موجهة إلى الإنسان على جهـة التهديد له والتحذير من عواقب الطغيـان فهـي لعمـري إشـارة إغرائية تحذيرية في الابتعاد عن الطغيان المقيت.

إذن فالتحذير والإغراء مربوطان بغايةٍ واحـدةٍ هـي أن يعبـد الإنسان ربّه من غير خُسران. وهذا فـي حقيقتـه يمثـل رأفـة بالإنسان ورحمة بما سيصير إليه الأمر، وهذه دعـوة اجتماعيـة تفشى بين الناس ليوائموا بين أعمالهم في الـدنيا ونتـائج هـذه الأعمال في الآخرة، وترتبط هذه القيم بالله تعالى في اتباع أوامره واجتناب نواهيه وزواجره... وكان ينبغي أن ينظر الناظر في قوله تعالى: ((**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**....)) سورة الأنعام/٩٦،

وإذا وقف وتأمل فسوف يستوقفه التخالف بـين المتعـاطفين: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) و (جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) ويتساءل لماذا لـم يجـيء

النَظم على وجه واحد كأن يقال على سبيل التمثيل: (فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً) أو: (فلق الإصباح وجعل الليل سكناً) ؟

أقول: إنّنا نجد في موازين النظم القرآني فرقاً دلالياً شاسعاً بين: (فالق وفلق) وبين: (جعل وجاعل) إذن فالتعبير بـ (فالق) أي: بصيغة اسم الفاعل يدلّ على الاستمرار والتجدد فـ (فالق الاصباح) يعني: أنّ الله تعالى يفلق الإصباح كل يوم بصورة مستمرة متجددة دون أي انقطاع، وهذه الحالة من شأنها أن تتمثل أمام أعيننا ونعيشها في خواطرنا، صورة تنطلق منها صور لاتنتهي ولا تقف عند حد إذْ تشاهد فيها قدرة الله تعالى قائمة على كل شيء. فهذا الإصباح ليس إصباحاً واحداً خلقته القدرة الإلهية ثم تركته يغدو ويروح في الحياة ولكنّه إصباح يولد كل يوم...يحيا ويموت ويموت ويحيا وهكذا أبدَ الدهر. وقدرة الله تعالى هي القائمة عليه في كلّ حال: تحييه وتميتّه وتميتّه وتحييه!!

وأنتَ تنظر معي أنَّ كل المعاني لتذهب لو أنَّ النظم القرآني جاء بالصِّيغة الفعلية: (فلق الإصباح) أي: أنّك لا ترى إلا صبحاً واحداً يطلّ على الحياة يغيب ثم يظهر ويظهر ثم يختفي فهو هو لايتغير وجهه. والصبح -كما هو معروف ومعلوم- مولد الحياة إذْ

تتدفَّق منهُ الحياة على كل حي كان ساكناً هامداً..! ولهـذا جـاء التَّعبير عن شروق الشمس بـ (الفلق) الذي يدلّ علـى الحركـة والانشقاق والتصدع.؟ أمَّا التعبير بالفعل (جَعَلَ) في قوله تعـالى: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) فإنَّ النظم القرآني اختار هذا؛ لمناسبة حال تلك الاكوان التي خلقها الله سبحانه واقامها في الوجود علـى سـمت واحد لايختلف فيه يومها عن أمسها أو غدها..إذن فـإنَّ التعبيـر بالفعل (جعل) يدلُّ على الوضع الذي أوجده الله سبحانه، وعليـه، فلا تجدّد فيه ولا تبّدل.. فالليل ساكن خامد...والشمس والقمر قـد عرضا هنا في معرض وظيفي إذْ يَعرض الناس من وجهيها عـدد السّنين والحساب، لإمكان التعبير عنهمـا وعـن اللّيـل السـاكن الساجي الخامد بالفعل (جَعَلَ) الذي يدلُّ على مجرد الخلـق فكـان ذلك أنسب تعبير لهذا المقام.

إِذن فما الليل والشمس والقمر في هذا العرض إلا أكـوان قائمـة على أداء وظائف محدّدة ثابتة لاتعدوها..فما أبـدع هـذا الخلـق الرَّباني فإنَّك لترى عَجَباً من آياتِ القدرة الآلهية!! وما أبدع هـذا السّر التَّعبيري البارع العَجيب!!!

من مظاهر القرآن الأسلوبية

القرآن الكريم يظلّ وسيظل يعلو علواً شامخاً على كـل كتـاب وكائنا حيّاً يملك النبض كلّه والعقل كله في حياة كاملة ومخلوقيـة يحسده عليها أيّ كتاب آخر..والقرآن أيضاً كتاب بليـغ مشـوق رائع، فهو مناط الاعجاز، هذا ما يجعل الناس صغاراً أمام معطياته الرائعة! إذنْ فأسُلوب القرآن أُسلوب فريد قـائم علـى اسـتقرار الحرف في الكلمة وتوازن الكلمة مع الكلمة في الجملة وتجـاوب الجملة مع الجملة في الآية... ومع ذلك فانّ هناك مظاهر أُسلوبيةً تعدُّ فنّاً من فنون القرآن، في التعبير وعليـه فـإنَّ هـذه الفنيـة التعبيرية مدعاة لطرد الملل من نفس القارئ أو السـامع وأنّهـا تجدد تأملاته الذهنية والشعورية. وأودّ في هذا المقام أن أُشير أو أُلمح إلى بعض هذه المظاهر الأسلوبية التي لفتت نظـري بقـوّة والتي تمثل انموذجاً أو وضعاً من أوضاع البيان القرآني من هذه المظاهر:

أولاً: في استعمال الضمير تارةً مفرداً وتارةً جمعاً، ففـي المجـال الذي يُراد به إثبات الوحدانية ونفي الشرك عن الإلوهية نلحظ أنّ

التعبير القرآني يستعمل الضمير المفرد وهذا يعززهُ قوله تعالى: ((**إنّني أنا اللهُ لا إلهَ إلّا أنا فاعبُدني وأقِم الصّلاةَ لِذِكري**..)) سورة طه/١٤.

أما في مجال إبراز القوة الإلهية والقدرة والنعمة فإنّ التعبير القرآني يستعمل ضمير الجمع (إنا) أو (نحن) أو يستعملهما معاً كما في قوله تعالى: ((**إنّا نحنُ نزّلنا الذّكر وإنّا لهُ لحافِظون**..)) سورة الحجر/٩. وكقوله تعالى: ((**إنّا نحنُ نُحيي ونُميتُ وإلينا المَصيرُ**.. سورة ق/٤٣.

ثانياً: استعمال الاسم الظاهر دون الضمير: المعروف في العربية إنّه إذا تقدّم اسم ثُمّ احتيجَ إليه أُستُغنيَ عنه بضمير: فنقول مثلاً: علي حضر وهو يحمل حقيبةً، وهذا هو الظاهر. فإذا ما قلنا: علي حضر، وعلي يحمل حقيبةً، كان ذلك خروجاً عن الظاهر ولابدّ لهذا الخروج عن طريق الخطاب من سبب بلاغي أو علّة بيانية وهذا ما ورد في قوله تعالى: ((**يَسألونَكَ عَنِ الشّهرِ الحَرامِ قِتالٍ فيهِ قُلْ قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ**..)) سورة البقرة/٢١٧.

فالملحوظ إنّ التعبير القرآني لم يقل: (قل:هو كبير). وقد كان لأحد العلماء القُدامى ذوق بياني في تجلية علّة هذا التصرف القرآني البديع بأن قال ما معناه: إنّه تعلّق الحكم الخيري باسم القتال فيه عموم، ولو جيءَ بالضمير وقال: هو كبير لتوهم

اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه وليس الأمر كذلك؛ وإنّما هو عام في كلّ قتال وقعَ في شهر حرام[٤١]

ثالثاً: اسناد أفعال الخير إلى الله تعالى: وهو مظهر بيَّن في التعبير القرآني فعند اسناد الأفعال إلى الله تعالى فإنّا نلحظ أنّه يسند الفعل إليه جلّ وعلا إن كان خيراً لتفضله في الخير العام، ولايسنده إليه إن كان شراً تنزيها له عن فعل الشّر وإرادة السوء؛ ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالة: ((**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**)) سورة الفاتحة/٧. وقوله تعالى: ((**قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ**..)) سورة النساء/٧٢. فإنت تلحظ عندما يذكر الله سبحانه النِعَم ينسبها إليه؛ لأنَ النعمة خير وتفضل منه وتلحظ في قوله تعالى: ((**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا**..)) سورة الإسراء/٨٣، إنّ فعل الخير (أنعم) أُسندَ إلى الله تعالى؛ لأنّه صاحب الفضل والنعمة أمّا فعل الشّر فلا يُسند إليه إذ قال: ((**وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ**)) ولم يقل (مسسناه بالشّر)... ونظير ما تقدّم قوله تعالى على لسان ابراهيم (ع) ((**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**..)) سورة الشعراء/٧٨-٨١، فأنت تلحظ أنَّهُ

---

(٤١) بدائع الفوائد لابن القيّم ٤٧/٢، ٤٨، وينظر: الحسنّ البلاغي عند ابن القيّم ١٩٧

نُسب إلى ربه كلّ كمال من هذه الأفعال ونسب إلى نفسه الـنقص منها وهو المرض...

رابعاً: تنكير المسند إليه: وإذا وقفنا عند قوله تعالى: ((**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**..)) سورة البقرة/ ١٧٩، نجد أنّ المسند إليه قد جيء به نكرة وهو (حياة) ولابدّ لهذا التنكير من دلالة أو من مزيّة بلاغية فلفظة (حياة) في الآية الكريمة توحي إلى أنّها حياة في غاية العظمة؛ لأنّ القاتل إذا عَرَفَ أنّه يُقتل قصاصاً بمن قتله كفَّ عن القتل وارتدع وآثر حبّ حياته ونفسه فكان فيه حياة له ولمن أرادَ قتله وبتعبير آخرأنّ القصاص يوفّر حياة المجتمع بردع كلّ من يفكّر في سفك دم غيره... ومن ثم فما أعظم هذه الحياة التي تتحقّق بهذا القصاص إذ فيها ردع لمن تُسوّل له نفسه القتل وفيها حفظ لحياة الأحياء؛ وفيها ردّ لحقوق القتيل، فما أعظم هذا القول القرآني الوجيز، وما أغزر دلالته التي استُفيدت من تنكير لفظة (حياة) !!.

خطرة في تكرار بعض الآي القرآني

القرآن الكريم نزل بلسان قوم، وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم (التكرار) إرادة للتوكيد والإفهام، وكما أن من مذاهبهم الإختصار

إرادة للتخفيف والإيجاز؛ لأنّ افتتان المتكلم والخطيب في الفنــون وخروجه من شيءٍ إلى شيءٍ أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد. وبذا (فالتكرار القرآني): هو إعجاز من إعجاز! ووجــه جديد من وجوه البلاغة، فعندما ينطق به القرآن، نجد فيــه تلــك الطلاوة، وتلك الحلاوة!! وعليه فأنّ كلّ كلامٍ يتكرر يُثقل ويُسمج.
أما التكرار الذي وقع في القرآن وفي بعض مواضعه فــإن جــاء فيها نغماً جديداً من أنغام الحُسن الرائع تضاف إلى تلــك الأنغــام السارية في القرآن كلّه... ولنا أن نقرأ هذه الآيات أولاً: ((**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**..))، ((**فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**..)) ، ((**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**.)). وبعد اقرأ الآية الأولى وقد تكررت أحدى وثلاثين مــرة في سورة (الرحمن) وقم بترديدها مرّاتٍ متتابعةٍ من غير فاصــل يفصل بينها. ماذا تجد؟ أتحس ثِقلاً على السمع؟ أتجد اضطراباً في اللسانِ؟ ان كنت صاحب شأن في الموسيقى فليس لي معك حديث في هذا الأمر...فانت خبير به عليم...وما عليك إلاّ أن تدندن بالآية الكريمة، وتحرك لسانك بحروفها حرفاً حرفاً، كما تحرّك أصــابعك على أوتار العود... وسينتهي بك ذلك إلى أن تجد نفسك في نشوة نغم عُلوي سماوي لم يقع لأُذنك من قبل!!

وإن لم تكن من ذوي الشأن الموسيقي فرتّل الآية الكريمة ترتيلاً قرآنياً..مرّة..،ومرّة، ومرّات... واملأ فمك بكلماتها، وافتح أذنيك لرنينها... وسترى أنّك تنطق بلحن موسيقى يفيض رحمة. وينبض جلالاً وقوّة.. يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربّها. وبالقلوب الضّالة أن تفرّ إلى خالقها... وإلاّ فالويل والثبور!!! وأقرأ الآية الثانية: ((**فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**..))، واصنع معها صنيعك مع الآية الأولى...تجد فيها ما وجدت في سابقتها من تساوق النغم، وتجاوب الكلمات، وتجاوب الحروف..فلا خلخلة ولا اضطراب ولا ثقل. ولكن تعاضد، وتساند، واتساق، وتعانق...بين الحروف والحروف، والكلمات والكلمات: وأحسب أنّك قد وقعت على ما تكشف لك من اختلاف بين النغم الموسيقي هنا، والنغم الموسيقي هناك.. إذ اختلف المقام.. فكان لكلّ مقامٍ مقال أو لحن...!! ((**فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)) ليس في هذا المقطع نبرة حنان، ولا حرف لين... إنَّهُ بناء من صخر، وجلمد اجتمعت حروفه على تلك الصورة فكانت شهاباً منقضّاً تقع على رؤوس المكذّبين الضالين!!!

واصنع بالآية الثالثة صنيعك باختيها السابقتين أنّك تجد المعن واحداً. ((**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**)) تماسك بين الحروف، وتجاذب بين

الكلمات... وتساوق في النغم المنطلـق منهـا فـلا خلخلــة ولا اضطراب.

ثُمَّ هي كيان واحد، هدير الرّعد ودمْدمة الصّواعق...ثم سكون كسكون القُبور!! ثُمَّ ماذا؟ وهل قلنا في هذه الآيات الثلاث كل مـا ينبغي أنْ يقال ؟ أجل إننّا لم نلْقَ الآيات إلاّ من جانب ضيِّق مـن جوانبها الفسيحة التي لا حدود لها...اقرأ الآيات الـثلاث معـ... على هذا الترتيب السابق، الأولى فالثانية، فالثالثة..هـل وجـدت شيئاً من هذا الجمع بينهما على تلـك الصـورة؟ إقرأهـ مـرّة أخرى..إنّك تجد أمراً عجباً، وتدبيرا عجيبا ! الآية الأولى.. سؤال ((**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ**)).

والآية الثانية جواب عن سؤال. ((**فويلٌ يومئذ للمكـذّبينَ**)). والآيــة الثالثة..سؤال وجواب معاً: ((**فكيف كان عَذابي وَنُذُر**)).

فالسؤال في الآية الأولى يتوّعد المُكـذِّبين بآيــات الله ونعمــه... ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح وفي الآيــة الثانيــة: ويـل وعذاب وبلاء يلقى المكّذبين الذين كذبوا بــالآء الله وفــي الآيــة الثالثة: بيان للحال التي تكشف عنها البلاء والويل والعذاب الـذي حاط بالمكذّبين والضّالين، وإذا فهم في عذاب السعير!. والآيــات الثلاث لم تقع في القرآن على هذا الترتيب، وإنّما كل واحدة منها

آية في سورة.. فالأولى كما تعرف في سورة (الرحمن) والثانيةَ في سورة (المرسلات) والثالثة في سورة (القمر)... وقد سقنا هذه الآيات الكريمة على الرغم من تباعد الفواصل التي تفصل بين السور الثلاث زماناً ومكاناً، وعليه فسوقنا هذه الآيات إحساس بما في القرآن من أسرار، فوقع لنا هذا الخاطر المرسل ما لا ينقدح من الرأي المُحْكَم...

ولكنَّ هذه الآيات الكريمة لم تجيءْ منقطعةً هكذا عن غيرها. ولا مسوقة هذا المساق المنفصل..بل هي آية في سورة فإذ نظرت إليها مكّررة، قلت: إنَّهن آيات في سورة.. وأنت إذ تقرأ هذه السور الثلاث تجد لهذه الآيات في سورها موقعاً غير الموقع الذي وجدتهُ حين قرأتها وحدها بعيدة عن الجو الذي يحيط بها. فيما بينها وما خلفها من آيات!! وهنا يتجلَّى لك إعجاز القرآن. ويبدو لكَ من هذه الآيات في روعة نظمها، وحسن نَغَمها ما لم يبد لك من قبلُ...!!

توظيف التقابل: دراسة في بعض الآي القرآني

المقصود بـ (التقابل) إن هناك لفظتين تحملُ كُلّ منهما معنى عكس المعنى الذي تحمله الأُخرى وهذا ماتلحظه بين لفظة (النور) التي تقابلها لفظة (الظلمة) وكذلك لفظة (الكبير) و(الصغير) وكذلك

(الخير) ، (الشّر) و(الحبّ) الذي تقابله لفظة (الكراهية)..الخ ويرى أحد الدارسين المحدثين أنَّ التقابل ظاهرة واحدة من مجموعة ظواهر تشكّل ما يسمَّى في علم الدلالة المعاصرة بـ (العلاقات الدلالية) وقد يطلق على ظاهرة التقابل بـ (التّضاد).[42]

أمَّا في الدرس البلاغي فيطلق على ظاهرة التقابل اسم الطباق في الغالب أو يطلقون عليها اسم المقابلة في أحيان أخرى... والملحوظ في ظاهرة التقابل لا يمكن حصر وجودها في الشأن اللغوي فهي سمة من سمات الفكر والكون والخلق.. الخلق ولاسيَّما خلق الإنسان فليس في مظهر الكون شيء عالٍ إلاَّ ويقابله شيء دانٍ.. وليس شيء قريب إلاَّ ويقابله بعيد.. وعليه فقد حرص أصحاب النّظر البلاغي على إظهار التناقض في المعنى وإبرازه بين الجمل أو الكلمات المتقابلة اعتماداً على أنَّ الأشياء تتمايز بالتضاد بينها، لكنهم لم يربطوا بين هذا التناقض في الدلالة والحركة التي يموج بها التركيب أو النصّ نتيجة لاحتكاك المتناقضات وهي تعمل في مجال واحد، فتكشف عن فنية الأُسلوب وتجلّي مستويات المعنى.

---

٤٢) ظاهرة التقابل في علم الدلالة بحث لـ د. أحمد نصيف الجنابي نشر في مجلة آداب المستنصرية، عدد (١٠) لسنة ١٩٨٥ ص ١٥

وسأخص مقالنا هذا بكلام على تجلّي ظاهرة التقابل وطفحانها في النصوص القرآنية التي سأورد بعضاً منها إذ تتمثّل فيها هذه الظاهرة وتوظف في الكشف عن الدلالة بأبعادها المختلفة خلال هذه البنية اللغوية. فالآية الكريمة من قوله تعالى: ((**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ..**)) سورة الأنعام/١٢٢. توظيف التقابل بين الاسم (ميْتاً) والفعل (أحيينا) وقد استعملا في سياق الآية استعمالاً مجازياً إذْ يمثلَ هذا التقابل علاقة دلالية ومن جانب آخر آصرة إيمانية وقد أورد القول القرآني هذا التقابل للكشف عن الأثر العظيم للإيمان في نفس الإنسان الذي اهتدى بعد كفر واستنار بعد ضلال وقد حقّق له الاسلام جوهر إنسانيته في هذه الحياة وأصبح بفضل الإيمان والهداية على بصيرة ورشد ومحجّة بيضاء يميزّ بين الحقّ والباطل ونلحظ أنَّ الآية الكريمة لتؤكد أثر هذا التضاد في إبراز وعي المهتدي وبصيرته بأنْ شبه هذا المؤمن المهتدي المستنير بالحيّ الذي له نور يتصرّف به كيفما سَلكَ وذلك بوساطة تقابل آخر يتّضح من تعميق صورة الضّال الغارق في عماه الذي لايهتدي أبداً ويظل يتخبط في ظلمات الكفر والضّلال مَهما تراءت له أعماله المنحرفة وحسن في نظره

ضلاله وكفره ولذا نلحظ أنَّ شبه هذا الكافر بالمتخبّط في الظلمات المستقر فيها وبذا يتجلّى التضاد من خلال هذا التقابل الملحوظ في الآية الكريمة. وقد ألمعت إلى التقابل بين (الموت والحياة) في الآية الكريمة قد استعملا في سياق الآية استعمالاً مجازياً؛ وذلك لأنّ المراد بالموت انقطاع نور الهداية والاستقرار في ظلمات الكفر والضلالة.. أمّا الحياة فيراد بها في الآية الاهتداء والإيمان وهذا التّقابل بدوره يمثل كما ذكرت سلفاً آصرة إيمانية؛ لأنّها تتعلق بالهداية والضلالة.

ونورد قوله تعالى: ((**قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤتي المُلكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ..**)) سورة آل عمران/٢٦، ونقف عند التقابلات في هذه الآية الكريمة فهناك لفظة "تؤتي" التي تقابل لفظة "تنزع" وهما يمثلان علاقة دلالية ومن جانب آخر يمثلان آصرة "ذهنية" وقد يمثلان آصرة "توازن" ونلاحظ التقابل بين لفظتي "تعز" و "تذل" وهما أيضاً يمثلان علاقة دلالية ومن جانب آخر يمثلان آصرة (اجتماعية) أو نفسية على ما أعتقد وأرى. والآية الكريمة تكشف عن سلطان الله الشامل سبحانه وتعالى وقدرته القادرة الكاملة وإرادته التي تحتوي كل شيء وتتصرف في الكون والأشياء بلا

حدود فالاتيان الذي يوحي بالبسط والعطاء والإغداق قد يصبح نزعاً واخذاً وحرماناً والإعزاز الذي يعني القوّة والمنعة والغلبة قد يصبح ضعفاً وذلاً وهزيمةً إذ المتصرف هو المالك الأوحد لكل شيءٍ المعطي المانع القادر على كل شيء فما أعظم سلطانه وما أجلّ قدرته!!

كما تكشف الحركة أو الحالة الفكرية في الجمع بين هذه المتضادات أو قل المتناقضات عن شدّة ضعف الإنسان وعجزه أمام مالك الملك سبحانه وتعالى فما أعظم وجوب الشكر للمولى على ما أنعم به.. على هذا الإنسان من هداية ورشاد.

لم نقف عند قوله تعالى: ((**أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** .)) سورة البقرة/ ١٧٥، نجد الآية الكريمة وظّفت التقابل بين لفظتي (الضلالة) و (الهدى) وبين لفظتي (العذاب) و (المغفرة) ولكل منهما يمثل علاقة دلالية ومن جانب آخر يمثل آصرة (إيمانية) والآية الكريمة تكشف عن أولئك الضالين الكفرة الذين أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان و (العذاب بالمغفرة) أي: استبدلوا الجحيم بالجنّة والآية في حقيقتها تؤكد تعجيب المؤمنين من جراءة أولئك الكفّار على اقتراف أنواع المعاصي ما يؤدبهم إلى دخول النّار والمكث فيها.

وبعد فإنَّ النصّ القرآني يموج بـ (التقابل) إذ كثير ما يوظّف هذا التضاد على مستوياتٍ متنوعةٍ فيعمد إلى الكشف عن الحركة التي تموج بها المعاني داخل النص كلّه عندما يصبح التقابل مرتكزاً بنائياً يتّكئ عليه النَّصّ في مكوناته وعلاقته.

المغايرة الإعرابية وأثرها في المخالفة الأسلوبية دراسة في تركيبات بعض الآي القرآني

لأسلوب القرآن الكريم مسالك متنوعة ومتعددة بيد أنّي ساحصر الكلام على مسلك واحد وهو: المغايرة الإعرابية وأثرها في المخالفة الأسلوبية. وقد أوقفت دراسة هذا اللون اللغوي على تركيباتِ بعض الآيات القرآنية، وأعني بهذا المظهر الأُسلوبي الذي هو جدير بالتأمل والنظر والدرس والتدقيق إنَّ أي مغايرة أو مخالفة في العلامة الإعرابية لها الأثر البارز والواضح في تغيير منحى أسلوب الكلام من نمط لغوي إلى نمط لغوي آخر وعلى وجه التحديد في تركيباتِ بعض الآيات القرآنية لما لهذا القول القرآني من أساليبٍ وأفانينٍ في كلام شغلت عقل النحاة والمفسرين وأصحاب القراءات القرآنية في توجيهها التوجيه

الأقوم والأصح ثم إنَّ لهذه المخالفات مظهراً أسلوبياً لــه دلالتــه ومعناه قد نبّه عليه علماؤنا العرب الأجلاء وعلى مقصديته. قـ
سيبويه: وسمعنا بعض العرب يقـول: الحمــد لله ربّ العــالمين. فسألت عنها يونس فزعم أنّها عربية.[٤٣] وروي عن ابي عبيدة أنّه إذا طال الكلام خرجوا من الرفعِ إلى النصبِ ومن النصبِ إلـى الرفعِ لتختلف ضروبه وتتباين تراكيبه.[٤٤]

وذكر بعض النحاة أنّ في الافتنان لمخالفة في الإعراب وغيـر المألوف زيادة تنبيه وإيقاظ السامع وتحريـك مـن رغبتـه فـي الاستماع ولا سيّما مع التزام حذف الفعل أو المبتدأ فأنّه أدلّ دليل على الاهتمام.[٤٥]

ويعرف هذا الأسلوب في علم اللغة المعاصر بـ (التّحـويلات الأسلوبية) وقد ذكر جومسكي صاحب نظرية التحويل والتوليد أنَّ التحليل الأسلوبي ينطلق من مفهوم خـاص للأسـلوب وهـو أنَّ الكاتب يستعمل أنواعاً معينة من التّحولات فـي لغتـه ولا سيّما التحولات الاختيارية بحيث تصبح هذه التحولات مميـزا اسـلوبيا عنده؛ لأنَّ هذا الاختيار دون غيره إنما هو في الأصـل اسـتغلال لطاقات اللغة الكامنة في النظام اللغوي بتحولات معينة.[٤٦]

---

[٤٣] كتاب سيبويه ٦٣/٢

[٤٤] فضلاً عن المحتسب لابن جني ١٩٨/١

[٤٥] حاشية العليمي بهامش شرح التصريح ١١٧/٢

[٤٦] ينظر: نظرية تشوفسكي اللغوية لـ جون لاينز تعليق حلمي خليل/ هامش ص٣٣

ومن خلال ما تقدّم نصل إلى أنّ الحالة المتحولة أمر لا ريب فيه لا تساوي الحالة الأولى أي الأصل، وبعبارة أوضح وأجلى أنّ أُسلوب الكلام في الحالة الثانية لايساوي طريقته في الحالة الأولى؛ وذلك لأنّ هذه المخالفة تؤدي إلى تغيير قيمة المعنى في ذهن المخاطب.

ولي أن أذكر أهم الآيات القرآنية بما فيها القراءات القرآنية التي تغَير فيها أُسلوب الكلام لتغير مجرى الاعراب تجدداً في المعنى وأقوى في الدلالة على المعاني الإنفعالية مدحاً أو ذماً.. وهو أشدّ إبلاغية من التعبير الأول؛ وذلك للكشف عن هذه الظاهرة الأُسلوبية ليتوضح للنظر مدى أثر هذه المغايرة في تغيير الأُسلوب ومخالفته.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ((**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**)) سورة المسد/٤، قرأ عاصم من السبعة حمالةَ بالنصب وقرأ الجمهور حمالةُ بالرفع هي الأصل إذ وُجِهَت على أنّها وصف لإمرأته. ويبدوا للنظر أنّ قراءة عاصم قد خرجت عن هذا الأصل إذ إنّها جاءت للمبالغة في الذّم باستعمال صيغة المبالغة، وعليه تغير الأسلوب من إخبار عادي إلى إخبار ثانٍ أكثر ذماً ومبالغةً في التشنيع بعد تغيير الاعراب، زد على ذلك فأنّ تغيير المألوف يدّل

على زيادة في التنبيه ومزيد من الاهتمام، لذا فالنصب في (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) نصب على الذّم لها وكأنّها اشتهرت بذلك فجرى الوصف عليها للذم لا للتخصيص من موصوف غيرها أما قراءة الجمهور فقد جاءت للاخبار عنها دون إبلاغية مقصودة.. وقد ذكر بعض المعربين القرآنيين: أنَّ هذهِ المرأةَ كانت قد اشتهرت بالنميمة فجرت صنعتها على الذّم لها لا للتخليص وفي الرفع ذمٌّ ولكنَّهُ في النصب أبين.[٤٧] لأَنك إذا نصبت لم تقصد إلى أن تزيدها تعريفاً وتبييناً إذ لم تجرِ الإعراب على مثل إعرابها وإنَّما قصدت إِلى ذمها لا لتخصيصها من غيرها بهذه الصفة التي اختصصتها بها.

ويظهر أنَّ هذا المعنى المنتج عن طريق التغيير الأُسلوبي الذي حملته قراءة النصب ألجأ بعض المفسرين إلى تحسينها وتحبيبها.

وفي قوله تعالى: ((**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**..)) سورة المؤمنون/٩١-٩٢.

وجّه بعض المفسرين والمعربين (عالمِ الغيب) بالجرِ على أَنَّه توصيف إلى لفظ الجلالة.[٤٨] وقُرِئَ بالرفع (عالمُ).[٤٩]

---

(٤٧)الكشف عن وجوه القراءات وعللها لمكي القيسي ٢/١٩، والبحر المحيط٨/٥٢٦

(٤٨) تفسير الكشاف ٤/٨١٥.

نقل رأي لأبي علي النحويّ مفاده أنّ قراءة الرفع تعني: أنّ الكلام قد انقطع وهو على أنّهُ خبر مبتدأ محذوف أي: هو عالم..[50] أما ابن عطية المفسر فينص على أنّ الرفع أبرع.[51] ومعنى قوله: (أبرع) أي: ابلغ وأبين. وهذا يفسر لنا أنّ طريق تحويل أسلوب الوصف بإخراجه عن نمطيته الاعرابية المألوفة إلى بنية أخرى مختلفة تركيباً أي: من الجرّ إلى الرفع. لأضفاء مزيد من المبالغة في المدح والتطرية؛ لأنّ هذه المخالفة تنبيه السامع إلى أنّ الله تعالى متصف بهذه الصفة الأزلية أي: يعلم ما غاب وما حضر فلا يخفى عليه شيء.

إذن فالأسلوب المتجدد الثاني هو أسلوب خبري ثانٍ ولكنه كثر اهتماماً وإبلاغاً وإيقاظاً من الأسلوب الأول المتحول عنه فضلاً عن ذلك أنّ خروج الوصف إلى الرفع أثبت. إذ في قراءة الرفع تقدير اسم. أي: (هو العالم) وفي هذا ثبوت وقوّة وديمومة.

ونقف عند قوله تعالى: ((**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...**)) سورة النساء/١٦٢. فنلحظ في

---

[49] تفسير الكشاف ٣/٢٠٠. والبحر المحيط ٦/٤١٩.
[50] البحر المحيط ٦/٤١٩.
[51] المصدر السابق .

تركيب هذه الآية الكريمة المغايرة الاعرابية في لفظة (والمقيمين) وكان القياس أن تكون بالرفع أي: (والمقيمون الصلاة)؛ لأنّها معطوفة على (الرّاسخون) غير أنّ تعبير الآية القرآني لم يرد الإخبار المجرّد وإنّما أراد أن يبيّن للناس فضل الصلاة على غيرها وحثهم عليها ولهذا تبع هذه المغايرة الاعرابية من الرفع إلى النصب المخالفة الأُسلوبيةإذ انتقل الكلام من هذا الاخبار المجرّد إلى أسلوب المدح والثناء أي بمعنى اخرج الكلام من بنية لغوية سطحية إلى بنية لغوية أخرى أكثر عمقاً وإبلاغاً لإضفاء مزيد من الترغيب في الأمر وتحبيبه ممّا أدت هذه المغايرة حتماً إلى تغيير قيمة المعنى وتعميقه في ذهنية المتلقّي أو المخاطب.

وبعد: فإننّا نخلص إلى أنّ المغايرة الإعرابية التي تحصل داخل تركيبات بعض الآيات القرآنية يتبعها عدول في الأُسلوب ولا شك في أنّ النمط الأسلوبي الثاني يردّ في الغالب لداعٍ بلاغي محض ممّا يعطي هذا دلالة أعمق وتوسعاً في المعاني وبعبارة أخرى أنّ قيمة المعنى تجدد في الأسلوب المتحول أي الثاني فهي تختلف دون أدنى شك عن الأُسلوب المتحول عنه. وهذه الدراسة اليسيرة يمكن التوسع فيها أيما توسع نظرياً وتطبيقياً أيّ بتطبيقها على النصوص الشعرية وكذلك الأمثال العربية فضلاً عن النصوص

القرآنية وقراءاتها التي وقفنا عند المتيسّر منها في تفسير هــذه المخالفات الاعرابية بعيداً عن تقديرات النحاة البعيدة...كما أنَّ هذا المنظور اللغوي يمكن التفسير في ضوئه بعض أبواب النحو منها: الاختصاص، أُسلوب الأغراء والتحذير وكذلك أُسلوب القطع فــي العطف والنعت ليتسنى لنا أنْ ننظر إلى هذه الأبواب نظرة لغويــة جديدة جادة.

الألوان البلاغية في بعض الآيات القرآنية

القرآن الكريم قريب من نفس، دان من كل قلبٍ وعقلٍ... فهو كتاب السماء إلى الأرض مستقراً ومستودعاً وقد جاء بالإعجــاز الأبدي الذي يشهد الدهر عليه!

جاء وقد حمل كريم المعاني، ونبيل المشاعر في رائــع نظمــه وعجيب صَوْغه، وعليه فلغة القرآن الكريم تمثّــل وجــه الكمــال اللغوي والفوق البلاغي..وفي هذا المقام سأعرض لبعض الأُلوان البلاغية في بعض الآيات القرآنية التي تدلل على براعــة البيــان القرآني وفنّيته الفريدة، فمن تلك الألوان البلاغية:

١-التفنن بتقديم الأهم في الذكر: جاء في قوله تعــالى: ((**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ**..)) سورة الجمعة/١١، الملحوظ في هذه الآيــة المباركــة

تقديم (التجارة) بدءاً على (اللهو)؛ لان المقصود الاساس هو التجارة فقدمها ثم قال: (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة..). فقدم ثانية (اللهو) على (التجارة)؛ لأنّ الخسارة بما لانفع فيه أعظم؛ فقدم ما هو أهم في الموضعين.

٢-وضع الموصول للتفخيم والتعظيم: جاء في قوله تعالى: ((**تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيءٍ قدير**...)) سورة الملك/١.
جاء اسم الموصول في قوله تعالى (**الذي بيده الملك**) تفخيماً وتعظيما أي: له الملك والسلطان والتصرف في الأكوان.

٣-الاطناب بتكرار الفعل: جاء في قوله تعالى: ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول..)) سورة التغابن ١٢. إذ ورد الإطناب في الآية الكريمة بتكرار الفعل (وأطيعوا) زيادة في التأكيد واعتناء بشأن الطاعة.

٤-الإطناب بتكرار الجملة: وهذا ما ورد في قوله تعالى: ((**كلا سيعلمون * ثم كلاّ سيعلمون**...)) سورة النبأ ٤-٥. فالملحوظ في القول القرآني أن جملة (كلا سيعلمون) وقد تكررت لنوعية والتهديد..وهذا الإطناب أيضا.

٥-ذكر المصدر للتأكيد: قال تعالى: ((**وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً**))

سورة نوح/٧. فالمصدر (استكباراً) ذُكر في الآية الكريمة تاكيداً للفعل. ويسمى هذا أيضاً في علم البديع بالإطناب. وعلى طرزه ما جاء في قوله تعالى: ((**ثمَّ إنّي اعلنتُ لَهُم واسررتُ لَهُم إسراراً..**)) سورة نوح/٩. وقد جاء المصدر (إسراراً) توكيداً لفعله وهو من باب الإطناب كما ألمعت.

٦-الوصف بالمصدر للمبالغة: قال تعالى: ((**قل أوحي إلي أنّهُ استمعَ نفرٌ من الجنّ فقالوا إنّا سَمعنا قرآناً عَجَباً..**)) سورة الجن/١. فالمصدر (عجباً) الوارد في الآية المباركة جاء وصفاً لـ (قرآناً) على جهة المبالغة في التوصيف، أي: قرآناً عجيباً في حسن إيجازه وروعة إعجازه.

٧-جناس الاشتقاق: وهذا ملحوظ في قوله تعالى: ((**سألَ سائلٌ بعذابٍ واقع..**)) سورة المعارج/١. حيث جناس الاشتقاق بين (سال) و (سائل) وكذلك في قوله تعالى: ((**فإذا نُقِرَ في النّاقور**)) سورة المدثر/٨. حيث جناس الاشتقاق بين (نقر) و (الناقور).

٨-المقابلة اللطيفة: وهذا اللون البلاغي ملحظه في قوله تعالى: ((**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً * إذا مسّه الشّرُ جَزوعاً * وإذا مسّهُ الخَيرُ مَنوعاً..**)) سورة المعارج/١٩-٢١. بالتعبير القرآني جاء بالمقابلة اللطيفة

السامية بين قوله تعالى: (إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً) وقوله تعالى: (وإذا مَسَّهُ الخَيرُ مَنوعاً) فما أعجب هذه المقابلة وما ألطفها!!

٩-التشبيه البليغ: وهذا اللون البلاغي نلحظه في قوله تعالى: ((**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً**..)) سورة النبأ/٦-٧، إذن فأصل الكلام في تركيب هاتين الآيتين الكريمين: جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ونظيره قوله تعالى: ((**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً**..)) سورة النبأ/١٠، أي: كالباس في الستر والخفاء.

١٠-أسلوب التهكم: وهذا ما نستبينه من خلال قوله تعالى: ((**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**..)) سورة المرسلات/٢٨-٣١، فقد سمى القرآن الكريم العذاب ظلا تهكما وسخريةً بهؤلاء المكذّبين.

من لطائف التّعبير في البيان القرآني

نقد شرف الله تعالى العربيةَ بحمل الرسالة؛ وذلك بجعل معجزاتها في ذات الكلمات التي اشتملت عليها هذه اللغة التي صيغت منها هذه الرسالة. فكانت قرآناً مبيناً. هذا القرآن الذي أصبح حديث الدنيا.. وهو ملء الأسماع والأفواه، وهو مادة

للأقلام، ومفتّح الخواطر، ومسرح للعقول...جاء القرآن فتحدّى العرب بالنظم السهل السمح فعجزوا عن مطاولته عجز استئياس واستسلام، وتحداهم بالجزل الفخم من النظم فاعياهم أن يرتقوا هذا المرتقى.. فأنت إذا ما وقفت عند النص القرآني ناظرا ومتأملا.. مقدّرا ومفكرا ومرتشفا منه..فإنك لم تجد إلا نشوة روحية تزداد كلما ازددت قراءةً وتأملا..فلن تزايلك هذه النشوة أبدا!! إذن فالعناية بالإمعان في النظر إلى كتاب الله وتذوق تراكيب آياته وألفاظها، محاولة لإدراك سر الإبداع في البيان القرآني. والتعرف على ما يمتاز به هذا البيان القرآني من فنيّة وعبقرية فهو يكشف عن الحقائق.. ويومئ وكأنّهُ في براعته قد أسهب ويشير وهو أبين معبّر.... ويمكن أنْ نتدبر نصّا قرآنيا مختارا لندرك شيئا عن بعض لطائف التعبير القرآني.. جاء في قوله تعالى: ((**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ**..)) سورة الذاريات/ ٢٤-٢٧.

من خلال النظر في الآيات الكريمة وهي تحكي قصة إبراهيم (ع) وهو يترفق بضيفه ويكرمهم الإكرام الأمثل... نستخلص منها بعض لطائف التعبير التي تضمنتها وهي:

نعت ضيف ابراهيم (ع) بالكرم فقال: (المكرمين) وهذا يُلمع منه أنّ إبراهيم (ع) قد أكرمهم أيما إكرام، وهم أيضا أي: ضيوفه مكرمون عند الله تعالى..

ومن لطائف التعبير أنّه قال (إذ دخلوا عليه) وهذا يُشع منه أنّ الضيوف دخلوا عليه فجاءةً من غير استئذان. وهذه إشارة بينة أيضاً إلى أنّ إبراهيم (ع) قد عُرف بجوده وقراه لضيوفه، بحيث

اعتادوا دخول منزله من دون استئذان؛ لأنّ منزله صار مضيف للواردين.. وهذا يمثل أعلى درجات الكرم وأرقاها..

ومنها: إنّ الضيوف حيّوه بالنصب فقالوا: (سلاما) وقد ردّ عليهم ابراهيم التحيةَ بالرفع فقال: (سلام). والسلام بالرفع أتمّ وأكمل. فجاء سلامه بتعبير الجملة الاسمية الدالة على الثبوت. وجاء سلامهم بتعبير الجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد. والاسم أثبت وأقوى في التعبير من الفعل؛ وهذا يدلّ أيضا على أنّ إبراهيم (ع) حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم!

ويلحظ في النص القرآني الذي أمامنا حذف المبتدأ من قوله: (قوم منكرون) فلما أنكرهم إبراهيم (ع) ولم يعرفهم، لم يواجههم بتعبير ينفرهم كما لو قال: (انتم منكرون) إذ إنّ هذا لايليق بمقام الضيافة وآدابها فعمد كما ألمعت إلى حذف المبتدأ احتشاماً منهم، وهذا من ألطف الكلام.

والملحوظ أيضا في النص أنه بُني الفعل للمجهول وحذف الفاعل وصيغ منه اسم المفعول فقال: (منكرون) ولم يقل إبراهيم (ع): (إنّي أنكركم) إبعادا من مواجهة ضيوفه ومن مجابهتهم بمثل هذ التعبير المنفر الذي لا يتناسب وأصول الضيافة.

وجاء في قوله : (فراغ إلى أهله) والروغان: الذهاب خفية بحيث لايشعر به ضيفه عندما يقوم بواجب الضيافة فيشق هذا على الضيف. فيلجأ ذاهبا خفية لى إعداد الطعام واحضاره حتى يأتي به إلى ضيفه من دون أن يشعر به. وهذا دليل قاطع على كرم رب المنزل (المضيف).

وقال: (إلى أهله) وهذا يدلَ على أنَ الطعام كان معدًا ومجهزا للضيوف، من غير أن يستعين بغيره أو يستعيره من جيران له.. وهذا دليل على كمال الضيافة..

وقوله: (فجاء بعجل سمين): الفعل (جاء) في سياق النص يدلّ على أنَ خدمة إبراهيم (ع) ضيفه بنفسه. ولم يقل التعبير: (أمر لهم) أو استعان بآخر على خدمة ضيفه. والتعبير الأول أبلغ في اكرام الضيف..وقال: (بعجل سمين) يعني: كاملا سمينا غير هزيل. وهذا من تمام كرم ابراهيم (ع) وكماله!!

وقوله: (فقرّبه إليهم) ولم يقل التعبير: (فقرّبهم إليه) والأول أبلغ في حسن الضيافة والكرامة. وهو أن يجلس الضيف ثم يقرب إليه الطعام وتحمله إلى جنابه..ولاتصنع أنت الطعام في ناحية ثمَ تأمر ضيفك بأن يتقرّب هو إليه!

وقوله: (ألا تأكلون) استعمل القرآن في تعبيره هنا الأداة (ألا) مع الفعل المضارع فشكّل هذا أسلوب العرض. إذن فهذا التعبير هو عرض وتلطف في القول ولم يستعمل الصيغة الأمرية (كلوا)

أو (مدّوا ايدكم) أو غير ذلك، فالتعبير الأول أكمل وألطف، إذ فيه توجيه تربوي فهو يعلّم الناس بعقولهم لطف المعاملة وحُسنها ومخاطبة ضيوفهم برفق ولين..

لقد جمعت هذه الآيات الكريمة صوراً متنوعةً تمثّلت بآداب الضيافة المثلى. إذْ تفنّنَ القرآن بعرض لطائفها السامية الرفيعة التي صاغها بأُسلوبٍ طليٍّ صياغة بارعة آسرة يعجز عنها أرباب البيان وأئمة الكلام!!.

البراعة البلاغية في اللغة القرآنية

لغة القرآن الكريم من اللغات الحيّة فهي لعمري لغة لاتموت ولا تنقرض ولا يعتورها القصور فهي لغة عالية كاملة غير ناقصة ؛ وسر ذلك لأنّها مرتبطة بكتاب مقدس ألا هو القرآن الكريم، واللغة العربية –دون أدنى شك- مرتبطة بالقرآن ارتباطاً محكماً، إذ هي السبيل إلى فهم الإعجاز القرآني الذي هو حقيقة الحقائق، ولبّ لبابها قد أودعه الله سبحانه في كلماتٍ نُظمت نَظم الدرّ المكنون فكانت قلائد من البيان الربّاني لعربي...وعليه، فإنّ عظمة القرآن تستوجب أن نجلس بين يديه وكلنا رغبة في معرفة أسرار لغته

ومناحيها التعبيرية وطرائفها التي يفتن بها القرآن أفتناناً بارعــاً. ولا أحسب أنَّ هذا القلم الضعيف يقوى على وصف ما فيــه مــن جمالٍ وجلالٍ.

إذن فلقاؤنا مع هذه اللغة القرآنية الشريفة لن يكون إلاّ بعد أن ننظر نظرات ونتأمل ملياً في مسالكها ومقاصــدها ومراميهــا... ويمكن أن نقف متأملين القول القرآني: ((**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**..)) سورة طه/١١٨-١١٩، فنلحظ أنَّهُ كيف قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحي.

والذي ينظر إلى الظاهر ربما يُخيّل إليه أنَّ (الجوع) يُقابَل بــــ (الظمأ) و (العُري) يُقابَل بــ (الضحى)، والذي يغوص في المعنى يرى أنَ هذا التعبير على الفصاحة والجلالــة؛ لأَنَّ الجــوع ألــم البطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنــى، وكــذلك (الظمأ) مع (الضحى)؛ لأَنَّ (الظمأ) موجــب لحــرارة البــاطن، و (الضحى) موجب لحرارة الظاهر، ولهذا نجــد أنّ تعبيــر القــرآن استعمل اللفظ ملاحظاً فيه أنْ يكون مناســباً للمعنــى المطلــوب، وملائماً تماماً للغرض المراد.

وفي تعبير الآية الكريمة سرّ بديع من البلاغةِ يُســمى: (قطــع النظير عن النظير)؛ وذلك أنّه قطع (الظمــأ) عــن (الجــوع)، و

(الضحى) عن (الكسوة) على الرّغم من التناسب الحاصل بينهما، والمقصد من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم أنّ المعدودات نعمة واحدة. على أنّ في الآية سر آخر وهو قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رؤوس الآي.

ونتأمل قوله تعالى: ((**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**..)) سورة النمل/١٨.

إذ نلحظ أنّ القول القرآني: (**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ** يُراد به أنّ إحدى النملات قالت لرفيقاتها أدخلوا بيوتكم، فنجد من خلال تعبير الآية الكريمة أنّ النملة خاطبت جمع النمل مخاطبة العقلاء؛ لأنّها أمرتهم بما يُؤمَر به العُقلاء، أمّا في تعبير (يا أيُّها) الوارد في الآية فهو نداء مع تنبيه ثُمَّ إنّ ذلك النمل في هذا القول الشريف جاء للتعيين والتخصيص ثم ورد الفعل (أُدخلوا) بهذه الصيغة الخطابية الأمرية فهو خطاب لجميع النمل ثمّ تعيين المدخول والتنصيص عليه وهو مساكنكم بعدما استعمل الفعل (لايحطمنكم) الذي يشع منه معنى التحذير ثم ذكر المُحذَّر منه وهو (سليمان) على وجه التخصيص ثم المُحذَّر منه المعطوف

عليه وهو (جنوده) على وجه التعميم ثم جيء بتعبير (لايشعرون) للتدليل على أنَ هذه النملة التي (قالت) قد اعتذرت لرفيقاتها اعتذاراً، فيالها من نملة ذكيةٍ فقد أحكمت القول إحكاماً ويالها من لغة سامية فهي نسج من البراعة البلاغية والفوق البياني في الصياغة العربية إذ يحسَ المتأمل المستنبط بروعتها وجمالها..

التّلوين الأسلوبي: دراسة في بعض آي القرآن

لقد سحرت لغة القرآن الكريم أبناءها العرب. إذْ تكشّفت لهم عن أسرارٍ عميقة لايبلغ غورها الا المفتونون بتشقيق الكلام... فالقرآن له شخصيته وله تصرّفاته الخاصة في التّعبير إذ هو يتميّز بها عن أساليب الكلام العربي فهو نمط وحده من القول!! وأدعوك إلى تأمل الأُسلوب القرآني لتملأ عينيك من جمال روعته وخلال بيانه، فإنّكَ ستلمح التلوين أو التنوع في طرق تعبيره، فالقِرآن لا يتقيّد أو يلتزم طريقاً واحداً في التعبير، بل يلجأ إلى التّفنن في إخراج القول في عرض شائق وأُسلوب مثير وقّوة في البيان يتوخاها تعبير القرآن قصد التدقيق في المعنى، وإبراز معالم الجمال، وتحريك النفس لتعي ما تسمع وتدرك ما يقال. إنَّ هذا التّلوين في أسلوب القرآن يمكن أنَ نلتمسه في بعض آي القرآن، التي دعتنا إلى النظر والتأمل فيها. ومنها

أولاً: ما جاء في قوله تعالى: ((**إنّ اللهَ فالِقُ الحبِّ والنّوى يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميّتِ وَمُخرِجُ الميتِ مِنَ الحيِّ..**)) سورة الأنعام/٩٥، فإذا دقّقت النظرَ في الآية الكريمة وجدت التلوين وقد جاء التّعبير بلفظ الفعل في إخراج الحيّ من الميّت فقال: (يُخرج) على حين جاء بلفظ اسم الفاعل في إخراج الميّت من الحيّ، ثم ملاحظة التخالف أو التغاير الدلالي بين المتعاطفين في قوله تعالى: ((**فالقُ الحبّ والنّوى**)) وقوله: ((**ومُخرج الميّت من الحّي**)). ولابدّ من بيان سرّ هذا... فأنتَ تقرأ معي قوله تعالى: (**فالقُ الحّب والنّوى**) فتلحظ أنَّ الله تعالى يفلق الحب والنوى ليخُرج النبات من الحَب والنَوى اليابس أو الميت، فهو يُشير إلى حياة متولدَة تتفجّر من هذا الجماد؛ أي: مواليد حيَة تنبعث من عالم الموات إلى عالم الحياة...وهذا المعنى يبيَّنه ويوضحه قوله تعالى: (**يُخرج الحيّ من الميّت**) أجل، فهذه الجملةَ القرآنية تعدّ شارحةً وكاشفةً لقوله تعالى: ((**فالقُ الحبّ والنّوى**)) ولذلك ابتدأت بالصيغة الفعلية (يخرج) التي تدلّ على التجدد والحدوث. وهذه الصورة التي تعرضها الآية الكريمة تمثّل جانباً من بعض قدرة الله تعالى وحكمته...

موات تنبعث منه الحياة!! ويمكن أنْ تسرّح النظر كرة أُخرى في الآية نفسها فستجد هناك صورة أُخرى تقابل هذه الصورة التي

وقفنا عندها وهي (إخراج الميّت من الحيّ)، فالله سبحانه: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى... وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾. فقوله: (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَي) معطوف على قوله: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾ فالصورة الأولى تدلّ كما المحت على حياة تنطلق من موات أمّا الثانية فإنّها تشير إلى إخراج الحب والنوى اليابس أو الميت من النبات الحي النامي، وبعبارة اظهر وأخصر، إخراج الميت من هذا الحي النامي؛ ولذلك جاء التعبير بالصيغةِ الاسمية التي تدلّ على الثبوت وعدم الحركة. ولا ريب في أنّ الصورة الثانية تخالف الصورة الأولى وتغايرها في المقصدية أو في المضمون وإن عُطِفت عليها!

ثانياً: ولك أنْ تنظر معي قوله تعالى: ((**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى**..)) سورة الأنعام/ ١٩. فسياق الاية سياق استفهام توبيخي والمعنى، كيف تشهدون أيُّها المشركون وتقرون أنّ مع الله آلهة أخرى؟ والملحوظ في الآية الكريمة أنّ تعبير الآلهة جاء بصيغةِ الجمع،وأنّ مفردها (إله) وقد نُعِتَت بالمفرد المؤنث (أخرى)؛ أنّها جمع لما لا يعقل، ولكن نلحظ التعبير القرآني في موضع آخر لايلتزم هذا الطريق في التعبير بل ينقل إلى اسلوبٍ آخر لفتاً للنظر، وإيقاظاً للإصغاء، فيأتي بنعت (الآلهة) مطابقاً له في النوعِ والعددِ وذلك في قولِه تعالى: ((**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ**

يَنشُرُونَ..)) سورة الأنبياء/٢١.فالآية الكريمة جاءتْ في سياق الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار. والمعنى: هل اتَّخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟! كل بل آلهة جماد لاتتَصف بالحول والقدرة، فهي ليست بآلهة على وجه الحقيقة ولكن التعبير القرآني انزلها منزلة العقلاء على طريق التهكم والسخرية إذْ جاء التعبير بالضمير (هم) للدلالة على الذكور العقلاء. وهم لايقوون على حال!!!

ثالثاً: وتجد الأُسلوب القرآني تارةً يأتي بحرف الجرّ (على). وتارةً أخرى ينتقل إلى حرف آخر فيأتي بحرف (الباء)، إنّ هذا التلوين بالأُسلوب لا يدركه ولا يتذوقه إلاّ الفطن اللّبيب المدقق في مسالك القرآن التعبيرية.

إنّ هذا التلوين باستعمال حروف الجر يمكن أن نلتمسه من خلال قوله تعالى لسيدنا موسى (ع): ((**وَلِتُصنَعَ عَلَى عَيْنِي**)) سورة طه/٣٩. وقوله تعالى في مخاطبةِ نوح (ع): ((**وَاصنَعِ الفُلكَ بِأَعيُنِنَا**)) سورة هود/٣٧.

في الاية الأولى (ولِتُصنَعَ عَلَى عَيْنِي) استعمل حرف الجر (على) لفظ العين للدلالة على إظهار أمرٍ كان خفياً وكشف ما كان مستوراً مكتوماً ويرى بعض حُذّاق النظر القرآني أنّ الاطفال كانو

يغذون ويصنعون سراً فلما أراد أن يصنع موسى أي يرعى ويربى ويغذى على وجه الأمن والظهور لاتحت وطأة الخوف والاستتار دخل الحرف (على) تنبيها على المعنى؛ لأن هذا الحرف يعطي معنى الاستعلاء ويدل على الظهور والإبداء، وذكر العين في تعبير الآية لتضمنها معنى الرعاية وقد جاءت بصيغة الافراد؛ لأنَ فيها الاختصاص الذي خصَ الله تعالى به موسى (ع) في قوله تعالى: ((**وَاصطَنَعتُكَ لِنَفسِي**)) سورة طه/٤١. اما الآية الثانية (**وَاصنَعِ الفُلكَ بِأَعيُنِنَا**) فيراد بها اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا، ولا يريد هنا إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم؛[٥٢] ولذلك لم يستعمل حرف الجر (على) اذ لم يحجَ إلى معناه في تعبير الآية؛ وإنَما استعمل حرف الجر (الباء) مع لفظة العين التي وردت في هذه الآية بصيغة الجمع؛ لأنَها قد يراد بها ملائكة الله تعالى كما يذهب إلى هذا التأويل بعض أصحاب البيان القرآني[٥٣]

وبعد: فإنَ هناك طُرقاً في القرآن الكريم متشعبة في التلوين الأُسلوبي وأسراراً لطيفة ودقيقة خافية مخفية تنتظر من ينظر ويتأمل ويعقل!!!

---

[٥٢] بدائع الفوائد٢/٥٠٦.

[٥٣] ينظر: الحسَ البلاغي عند ابن القيَم/ ٦٨.

رابعاً: نلحظ أنَّ القرآن في بعض آياته البينات يأتي بـأداة النفـي (لن) كما في قوله تعالى: ((**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً**..)) سورة البقرة/ ٩٤-٩٥.

وفي موضع آخر ينتقل من استعمال هـذه الاداة ليسـتعمل أداة أخرى وهي أداة النفي (لا) كما في قوله تعالى: ((**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً**...)) سورة الجمعة/ ٦-٧.

ولابد لهذا التلوين في استعمال هاتين الأداتين في كل موضع مـن هاتين الآيتين الكريمتين من مقصدية: إذ لكل منهما سبب اقتضاه المقام.

فالنفي في الآية الأولى جاء بـ (لَنْ) كما في قوله تعالى: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ) وذلك لأنَّ الآية الكريمة في سياق الكلام على الآخرة وهي استقبال، فكان النفي بـ (لن) وهو حرف خاص بالاسـتقبال، وإنَّ سياق الآية الثانية من قوله تعالى: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) جاء عامـاً فهو لا يختصّ بزمن دون زمن (إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّـهِ مِـنْ دُونِ النَّاسِ) فهذا الأمر عامّ ومطلق فجاء النفي بـ (لا) وهـو الحرف الذي يفيد العموم والاطلاق.

خامسا: وقد عني القرآن الكريم أشد عناية بتلوين الأحداث الشخوص والمعالم، إذْ تتلقاه العقول النيرة يقظة متدبرة، وتتلقّاه القلوب وجلة راجية!! فتراه مرة يردف الترهيب بالترغيب، والوعد بالوعيد تهدئة لنفوس المؤمنين، ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته، وإزعاجاً للملاحدة المعاندين ليؤولوا إلى عقولهم فيطرقوا أبواب النظر اتقاء عذاب الله وسخطه، فالقرآن الكريم يذكر جزاء الكفرة المعاندين الذين فُصِلَت لهم ثياب من نارٍ يحرقون فيها ويصب فوق رؤوسهم الماء الحار، حتى يُذاب ما في بطونهم من الأحشاء كما تذوب جلودهم، ولهم سياط من حديد يضربون به، كلما أرادوا أن يخرجوا من النار اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق. وهذا ما يصوره قوله تعالى: ((**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ..**)) سورة الحج/١٩-٢٢.

وتلحظ القرآن الكريم يتبع بذكر جزاء المؤمنين المتقين الذين عملوا الصالحات فيدخلون جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، يزينون فيها باساور من ذهبٍ مرصّعةٍ باللآليء، ولبسهم فيها من حرير، وهداهم الله إلى أحكم الأقوال وأطيبها، وأرشدهم إلى صراطه المستقيم..وهذا ما يصوره أيضاً قوله تعالى: ((**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ**

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ...)) سورة الحج/٢٣-٢٤.

فإنت ترى ما بين الأسلوبين، اسلوب التَرهيب والوعيد. وأسلوب الوعد والتَرغيب. فالأسلوب الأول أسلوب مجلجل مزعج يخلع القلوب! والأسلوب الثاني أسلوب ساكن هادئ هدوء الإيمان فهو يسري في قلوب المؤمنين الفائزين. سادساً: وحسبك أن تقر الآية الكريمة من قوله تعالى: ((**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...**)) سورة الحج/١٨. وإن تنظر في أسلوبها فسوف ترى أنَ هذه الآية تلفت إلى خاصيّة السجود التي أوقفت على تسخير الخلق كلهم للقدرة الإلهية الغالبة. وبعد فأنك تلحظ أيضاً أنَ الأسلوب القرآني قد تفنن بهذه الخاصيّة؛ وذلك برسم صورتين مختلفتين متقابلتين للسجد من الكائنات في عوالم الآفاق...وللسجد من الناس، فسجود غير الأناسي عام وشامل؛ لأنّه سجود وتذلل وتسخير للقدرة الإلهية... وسجود العقلاء من الناس سجود خاص لايحصل ولا يقع إلاّ من المؤمنين؛ لأنَّهُ سجود استجابة للتكليف بالطاعة والخضوع لله عزّ اسمه..لذا أنت تلحظ أنَ الأسلوب

القرآني قد لوّن هذا السجود تبعاً للخلق المرتسم به، فقد عمّ الأول وخصّ الثاني.. فالله ما أبدع هذا الكتاب الحكيم وما أروعه!!!

توظيف بعض صور المعرفة دلالياً في التركيب القرآني

إنّ تعدّد وسائل التعريف أمر يتعلّق بثراء الدّلالة وإغنائها لما يمكن أن تقدّم هذه الوسائل التعبيرية من إيحاءات ومقاصد متنوعة.. وبوسعي هنا أن أعرض بعض صور المعرفة التي وُظفت في تركيب القرآن، إذ لكل صورة من هذه الصور مقاماتها التي تقتضي التعبير بها ومقاصدها وإيحاءاتها التي تُستمد منها:

الصورة الأولى (العلم): والعلم وسيلة من وسائل التعريف وطريقة من طرقه التعبيرية في تحديد الأسماء وتخصيصها وهو السبيل لاستحضار معنى العلم في ذهن السامع أو المتلقي عندما يذكر أو يطلق ليتميز عمّا سواه ولئلاً يلتبس بغيره، مع ما يرتبط بذلك من إيحاءاتٍ ومقاصدٍ تثري الموقف وتكشف عن كثير من أبعاده..كما هو في قوله تعالى: ((**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...**)) سورة البقرة/١٢٧.

والملحوظ في الآية أنّه ذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في هذا السياق الروحي الذي يجعل المتلقي يَدرك تمام الإدراك أنّهما قاما بهذا الأمر الكبير والدور المهم الذي يتجلّى في بناء الكعبة الشريفة وقد توجها إلى الله تعالى متضرعين له بالطاعة الكاملة. والعبادة الخاصة املين في رضوانه ومحبته بهذا العمل..إذن فإذا ارتبط في ذهن المتلقي أو السامع كونهما رسولي ربّ العالمين يتضاعف إحساس هذا المتلقي بعظمة هذا البيت المقدس، وارتباط الإنسان المسلم به أيَّ ارتباط، وتعلقّه به أيّ تعلُّقٍ، وتلّهفه عليه!!

والصورة الثانية (اسم الموصول):المعروف أن اسم الموصول مع صلته كالكلمة الواحدة؛ لأَنَّ بهما يتضح المعنى وتتم الفائدة.. وعليه فأنَ اسم الموصول يوظف بوصفه وسليه من وسائل التعريف أَيضاً، فهو يوظف لمقتضى دلالي كذلك وهذا ما نتبينه ونلحظه من خلال قوله تعالى في شأن غرق فرعون وقومه...جاء في القول القرآني: ((**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى..**)) سورة طه/ ٧٨-٧٩، أي: غمرهم ماء جدّ كثير لا يحدّهُ وصف، فلو قِيل على وجه التحديد: غشيهم مقدار كذا من الماء لزال الإيحاء ولذهب بثراء الدلالة، ولا

فقدت هذه المباشرة وهذا التحديد اثر التعبير في النفس، وما يستدعيه من غمر الماء الكثير الشديد، الهائج حتى إنهّم أُغرقوا، وحلَّ عليهم عذاب الله وغضبه.

وعليه فالتعبير بـ (ما) الموصولة في تركيب هذه الآية الكريمة، جاء لإفادة التفخيم والتهويل، وانه لانجاة لهؤلاء الكافرين ولا فكاك من قضاء الله بعد ان طمسهم ألموج وغطتهم اللجة، ولا يتأتّى ذلك إلاّ من خلال التعبير بالموصول..

الصورة الثالثة (الإشارة): ويُؤتى باسم الإشارة حينما تكون الإشارة وسيلة لاحضاره في ذهن السامع، ويكون التعبير به في التركيب القرآني عند العلم به أو بصفته لمقاصد دلالية منها ما جاء للتحقير سواء اكان هذا التحقير مطابقاً للواقع وحقيقة الأمر كما في قوله تعالى: ((**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**)) سورة سبأ/٤٠، فهذا تحقير من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين أصموا قلوبهم وعقولهم دون نداء العقل والرحمة واتّباع الهُدى، إذْ جاء الاستفهام في هذه الآية الكريمة إنكارياً وتوبيخياً لهم على عبادة الأصنام وسائر المعبودات من دون الله تعالى.

أم يأتي التعبير باسم الاشارة للتحقير أيضاً ولكن من وجهة نظر المخاطب دون الواقع وحقيقة الأمر، تقول: الكافرين

مستهزئين بالرسول محمد (ص) وهو ما جاء في قولـه تعـالى: ((**أهذا الذي بعث اللهُ رسولاً**)) سورة الفرقان/٤١، فهذه الآية تعبّر عن موقف الكـافرين واسـتهتارهم بالرسـول الكـريم محمـد (ص) وتمسكهم بالسخرية منه ومن دعوته، وهذا الموقف مـن جانـب مشركي مكة اذن فهو لايمثلّ الحقيقة في شيء فهو موقف يعبّـر عن حالتهم وحدهم...

الصورة الرابعة (الضمير): ويوظّف الضمير في التركيب القرآني لأغراض ومقاصد...فالملحوظ في قوله تعالى: ((**واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكمَ اللهُ وهو خـير الحـاكمين**..)) سورة يـونس/١٠٩. إنّ الضمير (هو) يعود على لفظ الجلالة المتقدم، ومجيء تركيب الآية القرآنية على هذه الصورة في الجمع بين الضمير ومرجعـه فـي تأكيد وتقوية للمعنى والحكم، وعليه، فالأداء القرآني في هذه الآية المباركة يوظف ضمير الغيبة (هو) مرتبطاً بمـادة (حكـم) فـي صورتين اثنتين:

الصورة الأولى: استعمال الفعل المضارع (يحكم) واسـم الفاعـل (حاكم) وذلك يجعل الحاكمية لله تعالى، ومن ثـم تسـتحث صـبر الرسول (ص) على دعاوى المشركين المغرضين ملتزماً بما أُوحي إليه، وهذا هو طريق الخير لما عند الله..

الصورة الثانية: وفيها يتعمق الحث في نفسية الرسول (ص) عندما تفرّد المولى سبحانه بانه (خير الحاكمين) مما يضاعف هذا من إحساس المتلقي أو السامع بوجوب الحاكمية لله تعالى والدينونة له وحده، وهكذا نلحظ أنّ السياقات القرآنية مهمة جداً في تحديد دلالة استعمال صور المعرفة في التركيب القرآني.

التّحليل الجمالي
لنظم بعض الآي القرآني

هزّ القرآن الكريم وجدان العرب في كلامٍ مُحْكم بديعٍ وتصوير بارع فريد، لم يُوجد لهُ مثال...وبذا نلحظ أنّه قد تناول كلَّ فكرة بعمقٍ، فهو فيه روح الفنّ، وتصوير المبدع الأكبر الذي ترك الكلمة حَرّةً في الجملة أن تتحرك، والجملة في نظمها أن تنبض بالمعاني الخالدة وللمشهد أنْ يشخص في كلمات وللمعنى أنْ ينبض في حروف وأصوات. وعليه فإنّ الذي لا شكّ فيه أنّ للقرآن الكريم طريقته التعبيرية الخاصة...اذن ففهم ألفاظه وتركيباته وتحليل نظم آياته والعناية في إبراز خصائصها الجمالية لايكون إلاّ بالنظر العميق، والشُعور الرقيق..

ولي في هذا المقال أن أحللَ نظم بعض الآي القرآنـــي بغيـــة الكشف والوقوف عند معالمها الجمالية. وعندما نقرأ قوله تعالى: ((**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِــهِ مَـوْجٌ مِـنْ فَوْقِــهِ سَحَابٌ ظُلُمَـاتٌ بَعْضُهَا فَـوْقَ بَعْض...**)) سورة النور/٣٩-٤٠، ونتأمل بعمق وتدقيق هذا القـــول المبارك نلحظ أنَّ القرآن قد صورَ أعمال الكُفّـــار أيمَّـــا تصـــوير صورها في صورةٍ تشبيهيةٍ ناطقةٍ متحركةٍ، فهـــي فـــي أعيـــنهم جميلة ولكنّها في الحقيقة لا خير فيها ولا ثواب عليها ولا جزاء.. شبهها بهيأة السراب الذي يكون في صحراء واسعةٍ يظنهُ الظَّمان ماءً فيجهد نفسه في طلبته فيذهب إليه فلا يجد هناك أيَّ شـــيء!! ويتجلى المشبه في تعبير هذا النص في صورةٍ تشبيهيةٍ أخرى إذ شُبِّه بالظُلُمات الكثيفةِ في البحر المتلاطم الأمواج المتداخل بعضه في بعض وقد ظُلِلَ بالسَحاب. إذن فالنَّسق اللغوي والنظم الإلهـــي يضفيان حياةً ناطقةً على هذه الصورة التشبيهية مما يكسبها ظلاً إيحائياً.. فالنظم الإلهي والتركيب اللغوي يبرّزان لنا حالةً نفسـيةً حركيةً تصورَ معاناةَ سائر في صحراءَ قاحلةٍ، قد هدّد أحاسيســـه الظمأ والصدى، وقد حاول جهدهُ تهدئتها لمّا أُدرك أَنّهُ اقترب مـــن الماء أو كاد.. وقد تُكشف له في نهاية المطاف أنّه مـــاء وهمـــيّ

(خادع)!!!! يحسبهُ الظمأن يشير إلى أنّ الظمــآن أشَــدّ حرصــاً وتعلقاً بهذا المتخيل اعني (الماء). ويلحظ أنّ لفظة (حتــى) فــي تعبير القرآن: (حتى إذا جاءه) تثير أحاسيسَ نفســيـة.. والرحلــة المضنية وقد آن لصاحبها أن يروي صداه وغلته بعــد أنْ بلغتــهُ مشقّةَ الطريق!!!

ثمّ نقف عند لفظة (إذا) التي تفيد المفاجأة والتركيب اللغــوي لقوله: (جاءه) ينبعث منه الإحساس بالتلاحق النفسي بين الفعــل جاء وصاحبه و (الهاء) التي تشــير إلــى (المـــاء المتــوهم) أو السراب المحقق! ثم التعبير بالأداة (لم) التي تفيد النفــي والجــزم فهي تثير اليأس وفقدان الأمل!!

وقد دخلت هذه الأداة النافية على الفعل في تعبير القرآن (لــم يجده) وقد اتصلت بالفعل (الهاء) كما اتصلت بالفعل (جاءه) الــذي يُلمح منه الأمل الذي التصق بجوانح هذا الصديان...أمّا في تعبير الفعل (لم يجده) فيُلمح منه اليأس والقنوط الذي عــاتق الــذات!! وهذا المعنى الثاني كان من صنع (الهاء) في تعبيــر الفعــل (لــم يجده) كما صنعت (الهاء) المعنى الأول في تعبير الفعل (جاءه)..ثم تتجلّى أمام النظر لفظة (شيئاً) إذْ تقوم منتصبة لرسـم الصــورة العدمية المطلقة.. ومن ذلك فأنّ القرآن لو اختار تعبيراً لا خيــال

فيه وقال: الذين كفروا أعمالهم غير مثمرة لم يكن له في الـنفـ
ذلك الوقع وذلك الأثر القوي وهو يصوّر عدم جدوى هذه الأعمال
إذ يقرنه بشيء نراه باعيننا ونكاد نؤمن بوجوده إيماناً لا يتسرّب
إليه الشكّ، إذن فالصورة التي رسمها القرآن وصوّرها في أحسن
تصوير تزيدنا إقناعاً بعدم جدوى أعمال هؤلاء الكفّار ونقف عند
قوله تعالى: ((**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ..**
سورة الروم/٥٥.

وأقول: إنّ النظرة العمقة في هذا النص الكريم تدلّنا على إحكام
التجانس في هذه الآية المباركة، فقيام القيامة يمزّق قلوب الكفّار
ويتركهم حَيارى من أمرهم. إذ تنبعث الكلمات وتنشقّ من أعماقهم
مضطربة مذعورة كأنها آهات وهم يقسمون قسماً أكيداً مؤكداً أنّ
الدنيا لم تكن إلاّ ساعة من نهار وهذا إيحاء بالفرق الهائل والكبير
بين حياة وحياة!

حياة فانية، وحياة باقية وإيحاء بالفرق الهائل بين قلوب
وقلوب، قلوب كافرة، وقلوب مؤمنة وأيّ معنى أبلغ من هذا الذي
أثره الإحكام في التجانس بين كلمتي: (السّاعة وساعة) وبعد:
فالنظم القرآني يسمو سمواً سامياً، إذ يحلق في سماء الإعجاز
حيث الصور الناطقة الساحرة وجمال المعاني التي يرسمها وهي
تتفاعل في نفوس آدمية حيّة..!!

النّحـو البلاغي
وبيان قيمته في فهم النّص القرآني

نشأ علم النحو وهو على صلة وثيقة بالمعنى، اذ كانت للنحاة الاوائل العناية الفائقة والدقيقة بدراسة كلام العرب والوقوف على أساليبه التعبيرية وخصائصه الأسلوبية له من تقديم وتأخير. وتنكير وتعريف وحذف وكذلك المعاني المختلفة للأدوات والحروف وإنابة بعضها عن بعض. إذن فالنّحويون لهم نظرات فاحصة مدققة في أساليب التعبير الكلامي فهم قد بحثوا فيما يُعرض لها على وفق ما تقتضيه معاني الكلام وظرف القول ومناسبته. فاذا علمنا أنّ موضوع الدرس النحوي هو معرفة كيفية تركيب الكلام تبيّن للنظر أنّ علم المعاني مادة نحوية أو موضوع نحوّي بل هو روح النحو! لأنّ دراسة تركيب الكلام تستند إليه وتعتمد عليه اعتمادا! وعليه فعلم المعاني يبعث في قواعد النحو الُرواء والحيوية والقدرة على ممازجة الأفكار والأذواق والمشاعر. وفصل (معاني النحو) عن(النحو) وانتزاعها من ذهاب بروح النّحو و (قضاء عليه بالجمود) فيصبح قواعد جافَة قاصرة عن خلق القدرة في دارسيها على الفهم الدقيق والتذوق السديد

لأساليب العربية أو التَعبيـر الصّـحيح المصـيب عـن الأفكـار والمشاعر على النحو الذي نحاه العرب والقصـد الـذي قصـدوه وهذه حقيقة جليّة قال بها أغلب الدارسين المعاصرين. أنّ تجريد معاني النحو وإفرادها بعلم سُمّيَ بـ (علم المعاني)! ما جعل تلـك المعاني قلقة غير مستقَرة (تعاني ما تعانيه فنـون البلاغـة مـن خلْخَلَة في كيانها)

وقد تكلم (عبد القاهر الجرجاني) في كتابه (دلائـل الإعجـاز) على (النَظم). و (النَظْم) نظريته التي تقوم على تـوخي معـاني النحو، وهي القطب الذي أدار عليه كتابه (الدلائل)! إذْ افَاضَ فـي مفهوم النظم وأعاد، ونَبهَ على مكانته في علم العربية، وإلى أثره في حسن النظم وجمال التركيب ودقّة التعبير. والجرجـاني كـان يبغي من ذلك كلّه هو النَظر في النَص القرآنـي وتـدبّر معانيـه والجولان معه في مختلف مناحيه..أي كان يبحث في فَهْم الـنص المقدّس وبيان إعجازه، والجرجاني بعمله هذا يتّكِئ على مـنهج قويم يقوم على التربية الفنية وهي تربيـة الـذوق والإحسـاس والشعور بممارسة النصوص ونقدها والتّعرّف إلى مواطن القُـبْح والجَمال فيها فإذا ما ألِفَ الذوق النقد مارس قراءة النص القرآني متدبّراً وكاشفاً عن خصائصه الأسْلوبية وعن جمالياته في نَظْمِـه

حيث يَكْمنُ سُر إعجازه. وما النَّظْمُ إلا معاني النَحو التي أُلفت بين كلماته وآخت ثُمّ إنْ أسُس التربيــة الفنيــة التــي تهــدّى إليهــا الجرجاني قد أثمرتْ ثمرتها عند (الزمخشري) فهو قد انصبَ على دراسة آراء الجرجاني وتمثلها تمثيلاً منقطع النظير حتى استحالت يده أداة للإحاطة بخواصّ العبارات والتركيب والكشف عن دلالات الأساليب ومقاصدها فهو قد اعتمد أُعني (الزمخشري) على نظرية النَّظْم الجرجانية في تفسيره الكشاف واتخذها أساساً معرفياً فــي تفسير كتاب الله سبحانه وفهمه الفَهْم البياني الدقيق وذلــك مــن خلال تحليل آي القرآن واجالة النَّظر فيها فكــان بــذلك أنْ طَبــقَ نظرية النظم الجرجانية! وهي توخّي معاني النحو تطبيقاً علمياً، إذ انصبَّت عنايته على بيان نَسق النَّظم أو الأسْلوب في القرآن الكريم وبيان تعلُق الآياتِ بعضها ببعضٍ تعلُقَ عباراتِها وألفاظِهــا تعلُقــاَ يكشف في أثنائهِ عن علاقة النحو بالمعنى أو بالمعاني وهو يُعرف بــ (معاني النحو) أو (النَحو البلاغي) وعليه فالحاجة ملحة إلــى إبراز الصّلة الوثيقة بين النحو والبلاغة وعلى وجه التحديد (علم المعاني)؛ وذلك في حالة التذوق الأدبي للنص وإبراز القيم الفنّيــة والجمالية في النص القرآني. وهذا ما جعل بعض البلاغيين يهــتمَ بما يعرف أو يسمَى بــ (النَحــو البلاغــي) مــن ذلــك (توكيــد

الضميرين) وهذا مما جاء في قوله تعالى: ((قالوا ياموسى إمّا أنْ تُلْقي وإمّا أنْ نكون نحنُ المُلْقين..)) سورة الأعراف/١١٥، فإنّ إرادة السَحرة الإلقاء قبل موسى(ع) لم تكنْ معلومة عنده! لأنّهم لم يصرّحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما (نكون) و (نحن) دلّ ذلك على أنّهم يريدون التقدّم عليه والألقاء قبله! لأنّ من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كانوا قالوا: إما أنْ تُلْقي وإمّا أنْ نُلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم ((**وإمّا أن نكونَ نحن الملقين**)) استدلّ بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله. ولنا أنْ نقف عند قوله تعالى: ((**وَلَولا أنْ ثَبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَركَنُ إليهم شَيئاً قَليلاً إذاً لأذقْنَاكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المَماتِ ثمّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَينا نَصيراً**...)) سورة الإسراء/٧٤-٧٥.

والمعنى: لولا أن ثبتّناك على الحقّ بعصمتنا إياك وقد كدْتَ تميلُ إليهم وتسايرهم على ما طلبوا ولو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة! لأنّ الذنب من العظيم جرم كبير يستحقّ مضاعفة العذاب، والغرض من الآية بيان فضل الله سبحانه على الرسول الكريم في تثبيته على الحق وعصمته من الفتنة. ولو تخلّى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء. و (لولا

حرف امتناع لوجود أي: امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له، فليس في الآية ما ينقص من قدر الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم وإنمّا هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم. اقول: ولولا رقة التعبير وروعة التفسير البياني والاعتماد على المعنى النحوي، لما تبينّ الفرق الدقيق في الاستعمال بين تبيان الفضل للرسول العظيم ومعنى نقص القدر لغيره. ومن هنا كان الفهْمُ البياني كلام الله العزيز ومن ذلك معنى (عسى) وهي في أغلب حالاتها في كلام البشر للرجاء والشكّ وعدم اليقين من نتيجة ما تحمل من معنى أمّا في كلام الله فهي للتحقيق! لأنّهُ وعْدٌ كريم وهو لايتخلف ولهذا قال ابن عباس: (عسى) من الله واجبة أي: تفيد القطع قال الله تعالى ((**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**)) سورة الاسراء/٧٩ ((**عَسَى رَبُّكُم أَن يَرْحَمَكُمْ**..)) سورة الإسراء/٨. والأمثلة بهذا الشأن كثيرة جداً لايحيط بها قلمٌ ولا يتَّسعُ لها المقام !!! وبذا نفهم قيمة (النحو البلاغي) وبيان أهميته وقيمته في فهمْ النّص القرآني من خلال تحليل آياته والوقوف عند معانيه ومقاصده وبيان براعة أساليبه وصوره التّعبيرية....

قراءة في آياتِ الصَّوْم

لكل فرض من الفروض الدينية أثرهُ في تكوين الإنسان وإعداده مثالاً من أمثلة الحياة الواقعية وكل فرض تراد يتسم بخصائص وصفات تُسهِم مع الفرض الآخر بالنَصيب الكبير في هذا البناء مع إنفراده بخصائص ليست في غيره وبعبارة مجملة: أنّ الفروض الدينية تصلُ في النهايةِ إلى تحقيقِ المثل في طرقٍ متشعَبة تلتقي عند نقطة معينة هي الهدف والغاية وبعد فثمّ نظرةٌ قرانيةٌ متأملة إلى تركيب (آيات الصوم) وما في النسق من معان ودلالات وذلك من خلال الوقوف على ما جاء في قوله تعالى: ((**يا أيّها الذينَ آمنو كُتِبَ عَليكم الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الّذِينَ مِنْ قَبلكم لعلّكم تتّقون أيّاماً مَعدوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنكم مَريضاً أو على سَفرٍ فَعِدّةٌ مِن أيّامٍ اُخر وعَلى الّذِينَ يُطيقُونَه فِديَةٌ طعَامُ مِسكينٍ فَمَنْ تَطوّعَ خيراً فهوَ خيرٌ لهُ وأن تَصُومُوا خيرٌ لَكمْ إنْ كُنتم تعلمُونَ شَهرُ رَمضانَ الذي أنزِلَ فِيهِ القرآنُ هُدىً للنّاسِ وبيّناتٍ من الهُدى والفُرقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكم الشّهرَ فَليَصُمْهُ ومَنْ كانَ مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدّةٌ مِن أيامٍ اُخَر يُرِيدُ اللهُ بكمُ اليُسرَ ولا يُريدُ بكمُ العُسرَ ولِتُكمِلُوا العِدّةَ ولِتُكَبّروا اللهَ على ما هَداكُم ولَعلّكم تَشكُرُونَ**....)) سورة البقرة ١٨٣-١٨٥.

نلحظ أولاً: في النداء: يا أيها الذين آمنوا التكريم والتعظيم إلى هؤلاء الذين استجابوا إلى داعي الإيمان فآمنوا وصدقوا وشهدوا بالله ورسوله وما جاء به. والفعل الماضي (آمنوا) يؤكد ثبات هذا الإيمان الذي استحقوا عليه التكريم والتعظيم.

ثانيا: وفي قوله تعالى: كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم إيحاء بما له من فائدة عظيمة وجليلة محققة إذ كان حقيقة في الأديان السابقة والملل المتعددة.

ثالثا: لعلكم تتقون يشير إلى ما فيه من تربية العزيمة والارادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر على ما يتطلبه الجسم من رغبة في الطعام والشراب ومن ثمّ يروض الإنسان نفسه على الطاعة فيصل إلى ارقى درجات الإيمان.

رابعا: أياما معدودات أي معلومات محصورات ومضبوطات ومعني بها (شهر رمضان) وفي هذا التعبير دلالة على طريق اليسر والتخفيف لا العسر والثقل فإن في اليسر الرضا والاطمئنان وفي العسر الضجر والتذمر: وتلك طريقة من طرق الحياة الناجحة تشير إليها كلمتان في هذا النسق فالمنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى والإنسان الذي يقضي حاجات نفسه في نظام هادئ لا في سرعة خاطئة ولا في فوضى عارمة إذ يعين زمنا لكل عمل. وعملا لكل زمن يصل في النهاية إلى ما يريحه ويرضيه. ومن هنا لم يفرض صوم العام كله ولم يقر هؤلاء الذين أرادوا أن يصوموا الدهر على ما عقدوا النية عليه لئلا تفوت تلك الحكمة الخالدة في جوهر الحياة.

خامساً: فمنْ كان منْكُمْ مريضاً أوْ على سفرٍ فعدّةٌ منْ أيّامٍ أُخَـر في هذا التعبير رخصة للمريض والمسافر وكلّ صـاحب مشـقة بالقياس عليهما بالفطر ثم القضاء متى زالت ظروف الشّدة وذهب أمرها وفي تلك الرخصة سماحة هذا الدين الذي لم يغفل حاجةً من حاجات الناس ولا ظرفا من ظروفهم فلم تجئ أحكامهُ جامدةً صُلبةَ بل جاءت سهلة مطواعة تناسب الزمان والمكـان فـي مرونتهـا وتناسقها مع طبائع البشر على الزمن بتعدّد الأجيال.

سادساً: " وعلى الّذين يُطيقُونهُ فدْيةٌ طعامُ مسْكينٍ فمنْ تطوّع خيْراً فهُو خيْرٌ لهُ وأنْ تصُومُوا خيْرٌ لكُمْ " يدّل هذا التّعبير على أنّ فـي الصوم كثيراً من الفوائد التي تعود على الصائم نفسه وفيـه مـا يرغب جميع الناس لهذا المعنى فلا يتركونه ما دام في مقـدورهم وفاؤه والقيام به وهو يدلّ على أنّ الصوم خير لمطيقـه وأفضـل ثواباً من التفكير لمن أفطر بالعجْز.

سابعاً: " شهْرُ رمضان الّذي أُنْزل فيه الْقُرْآنُ هُدىً للنّاس وبيّنات من الْهُدى والْفُرْقان " في تعبير هذا القول القرآنـي دلالـة علـى تعظيم هذا الشهر الذي أنزل فيه القرآن هداية للبشر، وإخـراجهم من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد. وفيه كـذلك حـثٌ وترغيـب للإقبال نحو هذا الشهر لقاء ما فيه من خيرٍ.

ثامناً: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ " في هذا القول المبارك تأكيد يوحي بضرورة الصوم في وعده والفائدة في الصوم. وأنّه لا عوض عنه في الخصائص التي يختصّ بها والمميزات التي يشتمل عليها

تاسعاً: " ومنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعدَّةٌ منْ أيّام أُخَر أُعيد في هذا القول الشريف ذكر رخصة الإفطار مرّة ثانية لئلاّ يظنْ أنّ إفطار المريض والمسافر ومن على شاكلتهما غير مرغوب فيه بعد توالي السمات والمميزات في الصوم. وفي تلك الإعادة أيضاً إيحاء بأنّ رخصة الإفطار تتعلق بالشدّة الشديدة التي يخرج تحملها عن نطاق قدرة الصائم، إذ يُخشى معهُ الهلاك والموت. فلا تفوت حينئذ فائدة الصوم للصائم إلاّ إذا تعذرّ قيامها بها

عاشراً: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** . وفي هذا التعبير نجد التقابل بين اليسر وإرادته والعسر وعدم إرادته الذي يكشف عن المنفعة التي يريدها الإسلام للمسلم، والمضرة التي لايريدها. ففي الصوم نفع وفي تركه ضرر. وفي الرخصة نفع وفي تركها ضرر لكل ظرف ما يُهيئ إليه وما يليق به. وفي النهاية مصلحة الإنسان.

حادي عشر: **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** وفي هذا تأكيد أخير بتمام صوم رمضان. وبقية الآية يُوحي إلى أنّ النعمة في "رمضان" جليلة وهي من عند الله واهب النعم فله الشكر على ما هدى إليه ووفّق الناس فيه.

من براعة التصوير في العبارة القرآنية

لقد ذاق المسلمون الأولون حلاوة الكلام القرآني ولم يجدو لها شبيهاً فيما وقع للسان من مذاقات الطعام والشراب. إنّه حلاوة أسرة ما بعدها حلاوة استولت على الكيان الإنساني فاخذت عليه حسّه ووجدانه وقلبه، وعقله.. إنّه كلام ربّاني لا يملّه اللّسان ولا يضيق به الصدر على طول الصحبة وكثرة اللقاء!! وكلما أمعنا النظر في الأسلوب القرآني تكشفت لنا: فيه آفاق وراء آفاق من الاتساق والتناسق. فمن نظم فصيح إلى تعبير مصور دقيق إلى افتنان في الإخراج، وبهذا يكون الإبداع ويتحقق الإعجاز الأسلوبي الذي يمثّل الإعجاز الفوق البياني المعبّر عن المعنى المقصود أتمّ تعبير والمؤدي إلى تصوير المشاهد أكمل تصوير. وممّا يلفت نظر الناظرين المدققين في النص القرآني أنّ العبارة

القرآنية وقد حلت ألفاظها في موضعها. فهي تتصف بمتانة سبكها وتماسكها، وبإحكام تركيبها. وبفيض معانيها التي تبعث في النفس الاهتزاز المشبع بالقوة والإعجاب. إذن فالعبارة القرآنية تشع بالحياة فهي مصورة ومعبرة وموحية..وإن هذا الإشعاع متأت عن طريق التصوير الذي هو الأداة المهمة والمفصلة في القرآن الذي يسخر عباراته لعرض المشاهد وتقريبها من الأذهان وإن هذه المشاهد تأخذ صورتها البعيدة في الصيغة التعبيرية عن طريق القوة أو الدقة أو براعة التصوير. أن براعة التصوير في العبارة القرآنية تجسدها نصوص كثيرة منها: قوله تعالى ((**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**..)) سورة ابراهيم/١٥-١٧.

تأمل هذه الآيات الكريمة التي وردت في وصف ما يحيق بالجبابرة المعاندين. فسوف ترى تصويراً مفظعا ترجف لهوله قلوب السامعين وتنخلع: فهذا الجبار العنيد قد أحاقت به خيبته من كل ناحية وتمكنت من إذلاله أيما إذلال حتى جعلته سخرية للساخرين!! ومع هذه الخيبة والذلة والصغار لاولئك الجبابرة المعاندين من ورائهم جهنم التي تجردت من أي وصف أو نعت في تعبير الآية لتكون حاملة في صورتها جميع أصناف العذاب

وألوانه، ومع هذا العقاب الشديد في نار جهنم فهم يُسْـقون مـن ماء وأيَ ماء هذا؟ إنَهُ الصديد !!

وتأمل قوله تعالى: ﴿**يتجرَّعه**﴾ بهذه الصيغة التي تـدلَ علـى منتهى التكلف والمشقة وعلى الرغم من ذلـك لايكـاد يسـيغه!! وتصور صورته معي..وفي هذاالتصوير أنَه ((يأتيه الموت)) فيغيَر حاله فيكفهر وجهه، وتتقلص عضلاته؛ وتنقبض نفسه وتضـيق. وهو يتمنىَ أن يجد مكاناً يفرَ إليه أو جهةَ من الجهـات لا يأتيـه الموت، إذن فالموت يحيق به ويطوقَه من كل ناحية وصوب وهذا ما يصوره قوله تعالى ((**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**)). ((**وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**)): في كلمة (غليظ) النعتية التي وُصف بهـا العـذاب إشعاع دلالي جامع لكلَ وصف من أوصـاف الهـول والبشـاعة والاذى.. وأنت ما عليك إلاَ لتعرف مكان هذه الكلمة مـن براعـة البيان القرآني. فهي لم تكن مجرد لفظة قُصد بها معناها السطحي أو الفوقي الذي تُمليه أوضاع اللغة بل هي صورة كاملة وُضع في إطارها كلَ ما تتطلبه صورة العذاب التي تنتظـر الجبَـار العنيـد! وتأمل أيضاً المناسبة بين الجبَار العنيد ووصف عذابـه بـالغلظ. الجبَار العنيد! غالباً ما يكون حالهُ في الدنيا عتَلاً غليظ القلب...ثمَ تأملْ كيف تمَ التلاؤم والانسجام بين العذاب والغلـظ حيـث وقـع

موقعه من الموصوف فكان هذا من بديع التصوير وبراعته النابعة من داخل العبارة القرآنية المفعمة بدلالاتها والمزدحمة بأفكارها..

الفنون البَيانية في سورة الكوثر

إنّ القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى بلسان عربيٍّ مبين قد بلغ الفوق في الفصاحة والبلاغة. فعبارته محكمة عذبة، وأسلوبه لايرقى له أحد فهو متين رصين ما بعده أسلوب، وألفاظه هي لبنات هذا الصرح الشامخ فهي أفصح الألفاظ وأرقاها. لذا لغة القرآن هي صفوة ما في اللغة العربية من محاسن وجمال فهي المثال اللغوي الفريد الذي أبدعته يد القدرة الإلهية معجزةً لبني الإنسان!! إذن سأقدّم هذا الموضوع الذي أريد من خلاله أن أطوف بين حمى سورة من سور القرآن القصار ألا وهي سورة (الكوثر) لاستجلي بعض الفنون البيانية فيها، بعد تأملها ببصر نافذ وادراك رشيد...إذْ تتجلى هذه الفنون التي يمكن أن أوجزها على البيان الآتي:ـ

١-استعمال صيغة الجمع للدلالة على التعظيم في قوله تعالى: ((**إنَّا أعطَيْنَاكَ الكَوثَرَ**..)) سورة الكوثر/١، ولم يستعمل صيغة الإفراد: أنا أعطيتك.

٢-تصدرت الجملة القرآنية (إنّا أعْطيْنَاكَ..) بحرف التوكيد الذي يجري مجرى القسم في الاستعمال..

٣-جاء استعمال الفعل (أعطيناك) بالصيغة الماضية التي تفيد وقوع الحدث ولم يأت التَعبير بالصيغة المضارعية فيقول: (سنعطيك)؛ وذلك لأنَ الوعد لمَا كان محققَ الوقوع عُبر عنه بالصيغة الماضية للمبالغة كأنَه حدث ووقع.

٤- المبالغة في بنية لفظة (الكوثر) وهو الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تُسمي كلَ شيء كثير في العدد، والقدر كوثراً.

٥-في قوله تعالى: ((**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**..)) آية/٢، إضافة لفظة (ربَ) إلى الضمير المخاطب الذي يعود إلى الرسول محمد (ص) وهي إضافة تكريم وتشريف.

٦-في قوله تعالى: ((**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**..)) آية/٣. أفاد الحصر والقصر، أي! إنَ مبغضك- يا محمد- هو المقطوع والمبتور من رحمة الله وإنْ كان له أولاد، فهو لا يذكر إلاَ وذكر باللعنة والطرد.

٧-المطابقة الملحوظة بين أول سورة من قوله تعالى: ((**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**..)) وآخرها من قوله تعالى: ((**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**..)) أي؛ بينَ (الكوثر والأبتر) فالكوثر كما ألمعت: الخير الكثير، والأبتر: المنقطع عن كلَ خير.

فهذه السورة على قصرها ووجازتها قد جمعت الفنون البيانية...فسبحان من نزَل القرآن وأحكم آياته!!!.

في تحليل النّص القرآني: سورة الهمزة مثالاً

القرآن الكريم كلمات الناس التي يتداولها الناس فيما بينهم ثم أفاض الله سبحانه عليها هذا الفيض الرّباني السامي ونفخ فيها من روحه كما نُفخ في عصا موسى(ع)! ولكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس كما أبقى على عصا موسى طبيعتها أيضاً وهذا لعمري هو سرّ الإعجاز وعظمته.. كلماتٌ هُنّ من كلام الناس ثم يفعلن فعلهن العجيب في النفوس وتقيم سلطانها القاهر على القلوب!! وعليه فالقرآن الكريم له فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان روحانية يدركها كلّ من سبر مسالك القرآن بفهم حاذق وتحديق نظر.. وكلّ من أدرك بلاغته بمعاناة وتفكير. ولي في هذا المقال أنْ أختار سورة قرآنية لتكون أُنموذجا على البراعة البيانية في تعبير القرآن الذي هو بيان ما بعدهُ بيان؛ وذلك من خلال تحليل سورة (الهمزة) تحليلاً بيانياً.

السورة: ((**وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ* فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**..))

(**وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**): ابتدأت هذه السورة بهذا الإنذار الرهيب المخيف، إذْ بدأت باستعمال لفظة (ويل) التي تدلّ على العذاب

الشديد والهلاك والدّمار لذلك الشخص العيّاب للناس الكثير السخرية منهم بحركاته، المستهين بالأقدار وقد أوتي المال فاستهواه جمعاً وعدّاً. فهو لم ينفقه في سبيل الله ولم يؤدِّ حقّ الله فيه، ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه، حتى ليظن هذا الجاهل لفرط غفلته أنَّ المالَ سوف يُخلّده، ويدفع عنه الموت والعذاب..وهيهات هيهات!!

إذْ يأتي الرفض الزاجر الرادع لكلّ ما سبق والانكار الشديد لهذا المسلك في (كلاَّ) الردعية مرتبطاً بما ينتظر صاحبه من عذابٍ شديد، ألا وهو التحطيم لكيانه وجبروته وكبريائه وقد تردى منبوذاً في نارِ جهنم. وهنا يكون النسق القرآني قد تصاعد مصوراً هول هذا المسير تصويراً لا حدود له من خلال الربط بين ما سبق وهذا الاستفهام ((وما أدراك ما الحُطَمة)؟ وهذا الاستفهام يوحي إلى تجاوز العذاب والتحطيم لحدود التصور. ((وما أدراك ما الحُطَمة) تهويل وتفخيم لشأنها أي: وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنّها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللّحوم حتى تهجم على القلوب!!! ومنَ ثمَّ لابُدَّ من حذف المسند إليه في جواب هذا الاستفهام، ليكون الرد متناسقاً مع هذا التصعيد للعذاب الأليم فيكون: هو نار الله الموقدة. وتشتد

حالة التصعيد لهول هذا العذاب بإضافة (نار) لله سبحانه وتعالى ثم وصفها بـ (المُوقدة) وهي نار الله المُسعَرة بأمره تعالى وإرادته. فهي نار ليست كسائر النيران أجل، إنّها نار لاتخمد أبداً!!! هذه النار تلتهم فؤاد كلّ هَماز لمّاز وقد طوقتهم في كلّ جانب فهي كطبقة مغلقة عليهم إذْ لا معين ولا نصير ولا منقذ!! فهم قد وُثقُوا وقُيدوا في جوف هذا اللّهيب الحارق إلى أعمدةَ من حديد إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية، فما أفظعَ هذا المصير؟!!.

ويضاعف مما سبق انتقاء ألفاظ إيقاع خاص يتناسب وجو السورة الهائل.. تتعاون هذه الألفاظ على هول العذاب وهي: (كلاّ، لينبذنّ، تطّلع، مُمدّدة) وعلى وجه التخصيص لفظة: (الحُطَمة) التي يشعّ منها التّهشيم والتكسير والالتهام، ثم تكرير هذه اللفظة بإيقاعها الرّنان وإيحاءاتها!. وبذا تمتلئ نفس المتلقي إحساساً بهول جهنم الهائل ومصير هذا الهمّاز اللمّاز جمّاع المال. كما توحي هذه السورةَ إلى المتلقي حثاً على التخلص والابتعاد عن هذه الصفات الذميمة التي لا ترتسم بشخصية الإنسان المؤمن الصالح الخالص، وعلى الرغم من ارتباط هذه السورة بشخصية معينة كما يفصح عن هذا أصحاب التفسير القرآني ولكن هذا لا ينفي عمومية هذا الأنموذج، وشمولية الشخصية التي تناولتها هذه السورة المباركة.

في تحليل النّص القرآني: سورة الضّحى مثالاً

القرآن الكريم مائدة ممدودة يتغذّى منها العقل والروح.. فهو كتاب الله المعجز ولو ضاقت صدور ورغمت أُنوف فالقرآن العظيم آيات بيّنات يحشد له العقول المستنيرة التي ترى بعض جلاله ويستدعي القوى المبصرة التي ترى ما فيه من الأسرار والحكم الخفية، ولي في هذا المقال أنْ أقف عند سورة (الضحى) لتحليلها ولاستجلاء مناحيها البيانية.. فإذا قرأنا هذه السورة المباركة بفهم حاذق نجد أنّ هذه السورة لمسةً حانيةً من الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم محمد (ص) وقد فتر الوحي عنه إذْ زعم المشركون أنّ محمداً قد ودّعه ربّه فكانت سورة الضحى ردّاً وردعاً للكافرين وبَرْداً وسَلاماً على الرسول (ص) يواجه بها نار شماتة المشركين إذ تسبغ عليه فيضاً ربّانياً ملؤه الود والحُنّو فإذا قرأنا قوله تعالى: ((**وَالضّحَى وَاللّيلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**..)) سورة الضحى/١-٣. نلحظ الربط القرآني بين ظواهر الكون ومشاعر النفس إذْ إنّ السورة ابتدأت مقسمة بأصفى أثنن وهما: الضُحى الرائق واللّيل الساجي، فتتراسل مشاعر النَّفس بأحاسيس الطبيعة فيغمر اليقين والطمأنينة نفس الرسول الكريم(ص) لا سيَّما

وقد نفت السورة الكريمة زعم المشركين الكاذب نفياً قاطعاً عندما جعلته نفيا للزمن الماضي فينسحب بطبيعة السياق والنسق على الزمن الحاضر ويمتدّ هذا النفي من خلال العطف نفياً مطلقاً لأي بغض أو كراهية من المولى جلّ وعلا لرسوله الكريم (ص) ويلفت قوله تعالى (وما قلى) إلى نسق الصّياغة القرآنية تأبى أيَ ربط بين الفعل الدّال على الكراهية والبغض وبين الرسول المصطفى(ص) ولو كان هذا الفعل منفياً. وعليه فالمحذوف هناك ضمير المخاطب في (قلى) إذ إنّ هذا الحذف تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة في اللُطف والأيناس وهي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى أنْ يقال له (ما قلاك): وذلك لما في القلى من الطّرد والإبعاد وشدّة البغض بخلاف التوديع فلا شيء فيه من ذلك بل لعلّ الحسّ اللُغوي لمادة التوديع تومئ إلى الفراق على كره مع رجاء العودة كما يلمع إلى هذا بعض مفسّري القرآن المحدثين.

وإذا قرأنا قوله تعالى من السورة نفسها: ((**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**..)) نلحظ أنّ تعبير القرآن قابل بين (الآخرة) التي هي من التأخير وبين (الدنيا) التي هي من الدنو وقد قدم الآخرةَ على الدنيا لأفضليتها؛ لأنّ الاخرةَ هي الغد المرجو حيث خيراته ولذاته

العميمة وقد خلصت لك والخطاب يخص الرسول محمد (ص) أمّا خيرات الدنيا فهي قليلة منقطعة فهي لاتضاهي خيرات الآخرة. وقوله تعالى: ((**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ**..)) فالملحوظ أنّ تعبير الآية الكريمة لا يحدد حقيقة هذا العطاء أو كنهه وهنا نتصيد حذف المفعول الثاني للفعل (يعطي) للدلالة على مطلقية هذا العطاء وعموميته فهو عطاء يفوق كلّ تحديد.. ولنقرأ الآيات الكريمة: أ((**لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**..)). ولنتأملها..فإننا نلحظ أنّ هذه الآيات ارتبطت ارتباطاً واضحاً بما قبلها.. فالله الكريم قد بعث في نفسية الرسول (ص) السكينة والراحة والاطمئنان ورباطة الجأش بأن ثبّت قلبه. فتعبير القرآن يشير أو يلفت إلى النعم التي اسبغها الله تعالى على رسوله المصطفى في دنياه أو أولاه من اليُتم فآواه مسكنه اليتم ومن الحيرة والضلالة في أمور دينه فهداه لله تعالى...ومن العول فأغناه الله الكريم بفضله وجوده فهذه الإشارات الربانية أما تكفي لتكون دليلاً على أنّ الله العزيز غير تارك رسوله ولا مودعه؟! وأما تكفي طمأنة للمصطفى (ص)؟! ويتجلى أمام النظر الفعل (آوى) إذ اُستعمل في تعبير الاية الكريمة فهو يشير إلى معاني الأمان من ملاذ واستعانة وحمى ومأمن... وكلّها تفيد الاستقرار

والاستكانة..ولعمري إنّ الإيواء الذي ذُكر في هذه السورة هو إيواء إلهي ما بعده إيواء فهو إيواء مطلق غير مقيد!!! ونقرأ قوله تعالى: ((**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**...)) فإذا تأملنا كلمة (تقهر) القرآنية نجد أنّ هذه اللفظة توحي إلى معنى أعمق وأدقّ فهي لفظة موحية.. فهي لا تتقيّد بالدلالات أو التفسيرات المحدودة، مثل: غمط الحق التسلط المراد به الإيذاء. أو سلب المال أو ما إلى ذلك من تفسيرات بل أنّ هذه اللفظة تلفت أو توحي إلى دلالة أبعد من ذلك...فهي لفظة ذات وقعٍ وشفافية خاصة فكلّ شيء يخدش حساسية اليتيم أو يثير اليتيم ولو بكلمة عابرةٍ فهو عين القهر ولو انصف حقّه..أمّا ملحظ التحدّث بالنعمة الوارد في الآية الكريمة فيمكن أنْ يتّصل بمهمة المبعوث المصطفى الذي إخْتيرَ لتبليغ رسالة ربّه.

وعليه فأنّ النعمة في نظر بعض مفسري القرآن المحدثين هي الرسالة إذ هي نعمة النعم على الرغم من أنّ النعمة لها مدلولات لغوية محتملة ولكن معنى الرسالة معنى محتمل أيضاً ولكنه راجح. وهناك ملحظ في هذه السورة وعلى وجه التّحديد في الآيات الثلاث الأخيرة وهذا الملحظ يتعلّق بتقديم النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل على التحدّث بنعمته سبحانه؛ لأنّ الله غنيّ عن

كلَ شيءٍ وهما محتاجان إليه على الدوام؛ ولذلك أخَر حقَ نفسه. وعلى العموم فسورة الضحى ومن خلال الجوس في مسالكها سورة إرشادية ترشد المجتمع نحو طريق الهداية والرشاد. فالسورة بحق رسالة إصلاحية ((تدفع ذلَ الفاقدين وقهر اليتامى. وحيرةالسائلين)) فهي **ترشد** إلى أنْ نتعامل مع هؤلاء بالحسنى وأن نهتدي بشريعة المصطفى الذي أُصطُفي لحمل هذه الرسالة (نعمة النعم) التي أمرهُ الله سبحانه بأن يبثها وينشرها لتهتدي بها العقول الضالة والنفوس الحائرة!!

آية (القِصَاص) في البيان القرآني

إنَ الناظر المدققَ في اللغة القرآنية إنمَا ينظر في آياتٍ مبصرة مشعة ينظر إلى آيات معجزة فهو يشهد بحق أمراً معجباً لا يمكن أن يقع في عالم الفكر ولايمكن أنْ يضبط في قوالب المنطق..فهو في مواجهة البيان القرآني!! اجل. إنَهُ ينظر في سماء تنزل منها عبقريات الفنون جميعاً!!! ولي في هذا المقال أيضاً أن أقف عند الآية الكريمة من قوله تعالى: ((**وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ**...)) سورة البقرة/١٧٩.

في هذه الاية المباركة تشريع الله تعالى للمسلمين إذْ يضَع لهم القانون الثابت والحُكم العادل عندما يعتدي إنسان على آخر ويتجاوز حدود الشريعة والقانون والمعنى الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة هو أنَ القاتل إذا رأى أنّه يقتل قصاصاً بالذي قتله كفّ عن القتل وارتدع وانقطع وآثر حُبّ نفسه وحياته فكان ذلك حياة له ولأهله ولاقاربه ولمن أراد قتله.. وأنت تلحظ معي أنّ التعبير القرآني جاء بألفاظ كثيفة وموجزة ولكنّ المعنى واسع عميق لا يمكن التّعبير عنهُ إلاّ بألفاظ كثيرة...لذا فبإمكانك أنْ تتأملَّ الألفاظ الشريفة المشعَة نوراً الواردة في هذه الآية القرآنية لتكشف عن جلالها وإيجازها وبلاغتها ومعناها العظيم!!!!

فالآية تصدَرت بقوله (لكم) وهذا التعبير إيذان بمنفعة القصاص الذي هو عائد إليكم ومختصَ بكم فشرّعه اللهُ تعالى إليكم رحمةً واحساناً ولهذا قدّم الجار والمجرور (لكم) للطيفة (بلاغية) وهي التخصيص التي ألمعت إليها.. وتقف أمام النظر لفظة (القصَاص) التي تعني في المفهوم اللّغوي: المماثلة والمتابعة...لذلك سُمِيَ جزاء الجاني قِصاصاً؛ لأنَّهُ يتبع أثره فيفعل به كما فَعلَ...ومن هذا ينقدح في الذهن أنَ استعمال لفظة (القِصاص) في الآية الكريمة أشمل وأعمّ من استعمال لفظة

(القتل) نفسها الواردة في قول العرب: (القتل أنفى للقتل) لما للفظة (القصاص) من دلالات متعددة فهناك قصاص على القتل وقصاص على الجروح وهناك قصاص يراد به التأديب والتأنيب وكلّ عقوبةٍ شرعيةٍ أو أدبيةٍ أو اجتماعيةٍ داخلة ضمن إطار هذا المعنى وما من عقوبة إلاّ وينظر فيها إلى مصلحة المجتمع ثُمَّ إنَّ القصاص عقوبة مشروعة لمن يستحقّ الجزاء بها على جنايةٍ اقترفها ذلك الشخص أو ذنب جناه...أمّا لفظة (القتل) في التعبير البشري (القتل أنفى للقتل) فهو قد يكون عدواناً وقد يكون قصاصاً ولهذا جاء تعبير القرآن الكريم بلفظٍ دقيقٍ وبمعنى أشملُ ثُمَّ إنَّ هذهِ الاية الكريمة تحمل بين طياتها الترغيب في القصاص بذكر الحياة إذ جعلها له أي: للإنسان وفي الآية أيضاً إضهار للعدل وتجلية اهميته وهذا يتكشف من خلال كلمة (القصاص) ويستوحي أيضاً من الآية الردع لمن تُسوّل لهُ نفسه القتل وفيها أيضاً حفظ وصيانة لحياة الأحياء واستمرارها ولذا نلحظ تنكير هذه الحياة لتعظيمها وفي الآية أيضاً ردٌّ لبعض حقوق المقتول وبعد: فالآية الكريمة المباركة تشعّ بألفاظها النّورانية الموحية والمتجلّية بصوغِها العجيبِ فهي لعمري صورة رائعة لجمالية التّعبير وللفظ الموجز ولحلاوة السّبك ولروعة البيان وإِصابة المعنى!!

الفروقُ الدّلالية وتجلّياتها في
تعابير بعض الآي القرآني

إنَّ للقرآن الكريم طريقةً مخصوصةً في التّعبير، وهو أمرٌ لايقبلُ الجدل والشكّ!! وفهم هذه الطريقة وملاحظتها لايتأتىّ من التّعقيد وتداخل الأفكار بعضها في بعض... بل يكون بالنّظر العميق، والتّأمل الطّويل؛ لما في كتاب الله من معانٍ ودلالاتٍ...جاء في قوله تعالى: ((**الم ذلكَ الكتابُ لاريبَ فيه**)) سورة البقرة/١-٢. عند تسريح النّظر في الآية الكريمة نلحظُ فيها تأخير الجارّ والمجرور عن تعبير (لاريب) ولم يُقدّم الجارّ والمجرور عليه بأنْ يُقال في غير القرآن (لا فيه ريب)، والتوضيح أنَّ التَّعبير الأول يختلفُ دلالياً عن التعَّبير الثاني، فالأوّل قد أُخرَّ فيه (الجارّ والمجرور) كما هو ملحوظ؛ وذلك للتدليل على نفي الرّيب عنهُ وإثبات أنَّهُ حقَ وصدق، لاباطلٌ ولا كذبٌ، كما كانَ المشركون يدَّعون ويزعمون.[٥٤] فهو ردّ عليهم وتهوين لما زعموا. أمَّا المعنى في التَّعبير الثاني وهو عند تقديم الجارّ والمجرور أي: "لا

---

[٥٤] تفسير الكشاف ١-٢/ ٢٩.

فيه ريب" فهو يدل على أنَ هناك كتاباً سماوياً غير القرآن فيه ريب، وهذا ما ألمح إليه بعض أصحاب النّظر القرآني.[55] ونعمدُ أيضاً إلى قراءة قوله تعالى: "وفجرنا الأرض عُيوناً" سورة القمر/١٢، فنلحظ أنّ تعبير الآية الكريمة، قد أوقع التفجير على الأرض من ناحية اللفظ، أمّا من ناحية المعنى فإنّ التفجير للعُيون؛ ولهذا فالتّعبير الأوّل الذي جاء به القرآن تختلفُ دلالتهُ عن التّعبير الثاني لو جيء به في غير القرآن وهو: "وفجرنا عُيون الأرضِ".

وعليه فالتّعبير الأوّل فيه شمولية وعُموم، فهو يفيد أنّ الأرض قد تحوّلتْ إلى عُيون، وأنّ الماء قد كان يفورُ من كُلِّ جانبٍ ومكان منها .. أمّا التّعبير الثاني فهو لم يفد ما أفادهُ التّعبير الأوّل في الشّمول والعُموم، فهو يعني أنّ الماء قد كان فارَ من عُيون متفرّقة في الأرضِ وانجبسَ من أماكن منها. وهذا ماوقَف عليهِ الشيخ عبد القاهر الجرجانيّ في دلائلهِ الإعجازيّة، إذ كشفَ عن قصديّة التّعبير الأوّل، وقصديّة التّعبير الثاني عندما وقف متأمّلاً قوله تعالى: ((**واشتعلَ الرأسُ شيباً**..)) سورة مريم/ ٤. ليبيّن لنا مقصديتهُ التّعبيريّة عندما يعدل بهِ إلى استعمال التّعبير

---

[55] المصدر السابق.

الثاني وهو : (واشتعل شيب الرأس) وهو لاينزل منزلة التعبير الأول.[٥٦]

وهناك من الألفاظ يلقى عليها ظلالٌ معنويَة، والطَريف في ذلك الشاهد القرآني قال تعالى: ((ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا* فيذرها قاعاً صفصفاً* لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً..)) سورة طه/الآيات ١٠٥-١٠٧.

وقد وقف الزمخشري في كشافه متأملاً الفرق الدلالي بين (العوج) (بكسر العين وفتح الواو) و (العوج) (بفتح العين والواو). فذكر أنّ (العوج) بكسر العين للمعاني و (العوج) بفتح العين للأعيان: والأرض عين. ولكن كيف صحّ فيها المكسور؟ وبذا فأختيار اللفظ (عوجاً) على صورة كسر العين. له ديباجة بديعة، وموقع حسن في وصف الأرض بالملاسة والأستواء ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ حالة وأتمّ صورة.[٥٧]

وقد عمل الزمخشري نظرهُ في تبيين معنى هذا اللفظ المختار وتفسيره تفسيراً دلالياً دقيقاً قائلاً: لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها، وبالغت في التسوية على عينيك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنّهُ لم يبق فيها أعوجاج قطّ. ثمّ استعملت

---

[٥٦] دلائل الإعجاز /١٠٠ وما بعدها.

[٥٧] تفسير الكشاف ١-٢/٧١٧.

رأي المهندس بأن يعرض أستواءها على المقاييس الهندسَية لعثر فيها على عوج في غير موضعٍ ولايُدْرِكُ ذلك بحاسَة البصر. ولكن بالقياس الهندسيّ. فنفى الله عزّ وعلا. ذلك العوج الّذي دقّ ولطُف عن الإدراك اللّهمّ إلاّ بالقياس يعرفهُ صاحبُ التّقدير والهندسة.[٥٨]

إذن فلمّا كان هــذا الاعوجــاج لــم يُـدْرك إلا بالقيــاس دون الاحساس لحق بالمعاني فجاء التَعبير بــ (عوج) بكســر العــين. ونتأمل قوله تعالى: ((**كما بداكم تعُودونَ فريقاً هَدى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة**..)) سورة الأعراف/٢٩-٣٠. وكذلك ما جاء فــي قولــه تعالى: ((**ولَقدْ بَعثْنا في كُلِّ أمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغوتَ فمِنهُم مَن هَدى اللهُ ومِنهُم مَنْ حقّتْ عليهِ الضّلالةُ**...)) سورة النحل/٣٦.

الملحوظ في آية (الأعراف) أنَ (الضلالة) أســتُعملتْ لتــؤدّي وظيفة الفاعلية وقد جيء بها على جهة التّذكير فكــان التَعبيــر "حقّ عليهم الضّلالة" وتذكير (الضّلالة) في الآية الكريمة لهُ ملحظٌ دلاليّ؛ فهو يعني: (العذاب). إذ إنَ سياق الكــلام محصــور فــي الآخرة. فضلاً على ذلك فإنّ الآخرة لم تكنْ مقام الضّلال والضّياع والتّيهان!!! لأنّ الأمر قد انتهى وانقضى وانكشف كلّ شيء كــان محجوباً ومستوراً. وبان مــا كــان يــذكرهُ ويقولــهُ رُسُــلُ الله

---

[٥٨] تفسير الكشاف ١-٢/٧١٧-٧١٨.

سبحانهُ.أمّا في آية (النّحل) فقد جاء استعمال الفاعل (الضّــلالة) على معناهُ، من دون احتمـــال معنـــى آخـــر؛ وبتّعبيـــر آخـــر أنّ (الضَلالة) كما يقول بعض المعنيين بالشأن القرآني مقامها الدّنيا؛ وليس معنى الآية في الآخرة.[٥٩] ولمّا اختلف التّعبيـــران تبـــاين المعنيان.

ولنا أنْ نقف عند قوله تعالى: ((**لايُكلّفُ اللهُ نَفساً إلاّ وُسعَها لهـا مـا كَسبَتْ وعَليها ما أكتَسبَتْ**..)) سورة البقرة/٢٨٦.

ومعنى الآية الكريمة، لكلِّ نفس جزاء ما قــدّمتْ مـــن خيـــر، وجزاء ما أقترفتْ من شرّ، وعليه فالذي نستبينهُ من تعبير الآيـــة الكريمة أنّهُ استعمل (الكسب) في الخير و (الاكتساب) في الشـــرّ. وبين هذين اللّفظين تطابق معنويّ، وبين الاكتساب والكسب فارق دلالي، ففي الاكتساب اعتمال؛ لأنّ الشّرّ ممّا تشتهيه النّفس وهـــي مُنجذبة إليه وإمارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ كما يقـــول الزمخشري،[٦٠] أمّا (الكسب) فليس هناك اعتمال؛ ولــذلك خُــصّ الخير بالكسب والشرّ بالاكتساب.[٦١]

---

[٥٩] ينظر: معاني النحو د. فاضل السامرائي ٤٨٥/٢.

[٦٠] تفسير الكشاف ١-١٥٠/٢.

[٦١] المصدر السابق.

المصادر

-القرآن الكريم
٢-ابن القيِّم وحسّه البلاغي في تفسير القــرآن.د. عبــد الفتــاح لاشين (ط١) دار الرائد العربي/ بيروت- لبنان
٣-أساس البلاغة للزمخشري. دار صادر -بيروت/١٩٧٩
٤-اشتقاق أسماء الله للزّجاجي تحقيق د. عبد الحسين المبــارك. مطبعة النجف الاشرف/ ١٩٧٤.
٥-الإعجاز البياني للقرآن د. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشاطئ). دار المعارف/ مصر/ ١٩٧١
٦-إعجاز القرآن/ الإعجاز في دراسات الســابقين لعبــد الكــريم الخطيب (ط١) دار الكتاب العربي/ مصر/ ١٩٦٤.
٧-إعجاز القرآن والبلاغة النبويــة للرافعــي ط(٩) دار الكتــاب العربي/ بيروت/ ١٩٧٣.
٨-بدائع الفوائد لابن القيمّ الجوزيه-دار الطباعة المنيرية/ مصر.
٩-البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضــل إبراهيم (ط١) مطبعة البابي الحلبي/ ١٩٥٧.
١٠-تفسير أبي السّعود العمــادي (ط١) المطبعــة المصــرية ١٩٢٨.
١١-تفسير ابن كثير، دار أحياء الكتب العربيةَ/ عيســى البــابي الحلبي.
١٢-تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي، (ط٢) دار الفكــر ١٩٨٧.
١٣-التّفسير البياني للقرآن د. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشاطئ) (ط٤) دار المعارف /مصر/١٩٧٤.
١٤-تفسير الطوسي صححَه ورتّبه أحمد شوقي الأمــين وأحمــد حبيب قصير، المطبعة العلمية/ النجف.
١٥-تفسير القيمّ لابن القيمّ جمعة محمد الندوي وحققــه محمــد الفقي، لجنة التراث العربي/ بيروت.

١٦-حاشية الصبان للصبان، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي/ ١٩٤٧.
١٧-الخصائص لابن جني تحقيق: محمد علي النجَار ،دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.
١٨-دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني قرأهُ وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مكتبة الخانجي/ القاهرة.
١٩-ديوان الأدب للفارابي تحقيق: أحمد مختار عمر/ الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية /القاهرة/ ١٩٧٤.
٢٠-ظاهرة التقابل في علم الدلالة (بحث) لـ د. أحمد نصَيف الجنابي منشور في مجلة آداب المستنصرية عدد(١٠) سنة ١٩٨٥.
٢١- الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري-دار الآفاق الجديدة/ بيروت
٢٢- في البنية والدلالة سعد أبو الرضا نشر مكتبة المعارف/ الاسكندرية.
القاموس المحيط للفيروز آبادي عالم الكتب/ بيروت.
القرآن هدايتهُ وإعجازه في أقوال المفسرين محمد الصادق عرجون: نشر مكتبة الكليات الأزهرية.
٢٣- كتاب سيبويه تحقيق عبد السلام محمد هارون (ط٢) مكتبة الخانجي /القاهرة.
٢٤- الكشاف للزمخشري، دار إحياء التراث العربي_ بيروت- لبنان.
٢٥- الكشف عن وجوه القراءات السَبع وعللها وحجمها لمكي بن أبي طالب القيسي تحقيق: محيي الدين رمضان. مطبوعات مجمع اللغة العربية/ دمشق/ ١٩٧٤
٢٦- الكليات للكفوي، بولاق/١٢٨١هـ.
٢٧- لغة القرآن د. عبد الجليل عبد الرحيم (ط١) مكتبة الرسالة الحديثة. عمان/ ١٩٨١.

٢٨- لغة القرآن د. محمد روّاس قلعة جي، دار النفــائس (ط١) ١٩٨٨/.

٢٩- مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق فؤاد ســزكين/ الخــانجي/ دار الفكر.

٣٠-مختار الصّحاح للرازي. المركز العربي للثقافة والعلوم عنيت بضبطه سميرة المولي.

٣١- مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب/ دار الشروق.

٣٢- المصباح المنير للفيّومي/ المكتبة العلمية/ بيروت.

٣٣- المعاني الثانية د. فتحي أحمــد عــامر منشــأة المعــارف الاسكندرية/ ١٩٧٦.

٣٤- معاني النحو د. فاضل السامرائي، مطبعة التعلــيم العــالي/ الموصل/ ١٩٨٩.

٣٥- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق: صــفوان عدنان داودي (ط١) بيروت/ ١٩٩٦

٣٦- مناهج وآراء في لغة القرآن د. محمد بركات حمــدي أبــو علي، دار الفكر، عمان/ ١٩٨٤.

٣٧- نظرية تشومسكي اللغوية، جون لاينز، ترجمة وتعليــق: د. أحمد خليل (ط١) دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية/ ١٩٨٥

٣٨- النعت في التركيب القرآنــي د. فــاخر هاشــم الياســري، أطروحة دكتوراه، مخطوطــة/ جامعــة البصــرة/ كليــة الآداب/ ١٩٩٦.

٣٩- همع الهوامع للسيوطي، غني بتصحيحه محمد بدر الــدّين النعساني ،دار المعرفة، بيروت، لبنان.

محتويات الكتاب

الادارة والارشيف
آمال مهدي
التنضيد الالكتروني
سندس مهدي
التصحيح الطباعي
ضفاف علي
المتابعة
هدى كاظم

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق بغداد ٢٧٢ لسنة ٢٠٠٨